كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمّد بن عبد الوهاب

شرح الأستاذة

أناهير بنت عيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْم يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزّوجلّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

فهرس الجزء الرّابع

كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمّد بن عبد الوهاب

اللّقاء الخامس عشر ______ ٤

باب ذكر اليأس من روح الله والأمن من مكر الله ______ ٤

اللّقاء السّادس عشر ______ ٣٣

تابع باب اليأس من روح الله والأمن من مكر الله ______ ٣٣

اللّقاء السّابع عشر ______ ٥٨

باب ذكر سوء الظّنّ بالله ______ ٥٨

اللّقاء الثّامن عشر ______ ٨٣

تابع باب ذكر سوء الظّنّ بالله ______ ٨٣

اللّقاء التّاسع عشر ______ ١٠٩

تابع باب ذكر سوء الظّنّ بالله ______ ١٠٩

اللّقاء العشرون ______ ١٣٦

تابع باب ذكر سوء الظّنّ بالله ______ ١٣٦

اللّقاء الخامس عشر

٤ جمادى الأول ١٤٤٠

باب ذكر اليأس من روح الله والأمن من مكر الله

الحمد الله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لا زلنا بفضل الله نُناقش رسالة الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب، في مسألة الكبائر، وقد مرّت علينا مجموعة من الكبائر، ومرّ علينا مناقشة أنّ الكبائر تنقسم إلى قسمين:

١. كبائر قلبيّة، من جهة.

٢. وكبائر عمليّة، من جهة أخرى.

يعني بالجوارح وبالقلب. وقد مرّ علينا عددًا من الكبائر القلبيّة: **الكِبْر**، ثمّ أتى الكلام عن **العُجْب**، ثمّ أتى الكلام عن **الرّياء والسّمعة**، ثمّ وصلنا إلى **كبيرة الفرح**، وقد تبيّنت لنا **كبيرة الفرح** بالتّفصيل، واتّفقنا في آخر لقاء لنا أنّنا سنطبع **كبيرة الفرح**، نجمع ورود **الفرح** في القرآن كاملًا ونوفّره في المتجر، فهو موجود، موجود جميع الآيات الّتي وردت في القرآن فيها نقاش للفرح، وتمييزها بين أن يكون فرحًا مذمومًا، وبين أن يكون فرحًا محمودًا.

إلى أن وصلنا إلى:

«باب ذكر اليأس من روح الله والأمن من مكر الله»

وسنرى في هذا الباب أدلّته، والكبيرتان كيف جمعها سويًّا في باب واحد.

بسم الله:

التّعليق على الدّليل الأوّل موطن سورة يوسف (٨٧)

قال الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب، رحمه الله، في كتابه الكبائر: (**"باب ذكر اليأس من روح الله والأمن من مكر الله"**: وقولِ الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[١]. وقولهِ تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٢].

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أكبرُ الكبائِرِ الإشراكُ بالله، والأَمنُ مِن مكرِ الله، والقُنوطُ من رحمةِ الله، واليأْس مِن روح الله.» رواه عبدُ الرزاق[٣].

وأخرجه ابنُ أبي حاتمٍ عنِ ابن عباسٍ -رضي الله تعالى عنهما- مرفوعًا ولفظهُ: سئل ما الكَبَائِر فقالَ: «الإِشراكُ بالله، والأمنُ مِن مَكرِ الله، واليأْسُ من روحِ الله».[٤].

إذًا في هذا الباب أورد كبيرتين: اليأس من روح الله، وضدّها الأمن من مكر الله، وجمعهما في موطن واحد لأنّهما طرفان لعقيدة صحيحة، يعني هناك

(١) يوسف: ٨٧.

(٢) الأعراف: ٩٩.

(٣) مصنف عبد الرزاق ١٠/ ٢٦٠.

(٤) رواه البزار بنحوه كما في كشف الأستار ١/ ٧١ رقم ١٠٦ وقال الهيثمي ١/ ١٠٣ رجاله موثقون.

عقيدة صحيحة في الله يجب أن نجمعهم في قلبنا لله، وهاتان الكبيرتان طرفا الضّدّ لهذه العقيدة، فنبدأ أوّلًا بالكلام عن العقيدة الصّحيحة في هذا الباب.

العبد كما أنّه يُطلب منه أن يعرف الله معرفة يقينيّة، تورثه محبّة الله، كذلك يُطلب منه أن يعرف الله محبّة تورثه الخوف من الله، ورجاء رحمة الله، بمعنى: أنّ العبد كلّ يوم من المفترض: أن يزداد معرفةً بالله، هذه المعرفة توصله إلى محبّة الله أصلًا، وتوصله إلى رجاء الله، والخوف من الله معًا فرعًا، فرع على المعرفة.

إذًا: ما مقصد المعرفة الأساسي؟ المحبّة، ومعناه: أنّ العبد كلّ يوم يزداد معرفةً؛ يزداد محبّة. وإذا ازداد معرفةً؛ فإنّه فرع على هذه المعرفة أن يجمع بين الخوف من الله، وبين رجاء الله، لابدّ من الجمع بين الخوف من الله وبين رجاء الله.

حين يفرد أحد هذين الشّعورين في قلبه، ويتطرَّف بهما، يتطرَّف بهذه المشاعر، يعني يأخذ الطّرف منه؛ فإنّه يدخل في أحد هاتين الكبيرتين، بمعنى

- إذا زاد في خوفه من الله سيصل إلى اليأس من روح الله!
- وإذا زاد في رجاء الله سيصل إلى الأمن من مكر الله!

وكلا الطّرفان مذمومان، كبيرة هنا! وهنا كبيرة!

إذًا: العبد يحبّ الله، فإذا أحبّه انكسر بين يديه، ورأى كلّ نعمة من عند ربّ العالمين، وتجده مخلصًا لله، طالبًا ثناء الله، وتجده يفرح بالنِّعْمَة لأنّها من

الله؛ لأنها تزيده معرفة لله، وكلّ هذه المعرفة تسبّب له الخوف الصّحيح الّذي في مكانه، والرّجاء الصّحيح الّذي في مكانه.

خلاف الخوف والرّجاء، سيكون ماذا؟ إذا انفرد أحد هذان الشّعوران واستملك في النّفس وتطرَّف صاحبه به، سيورثه **اليأس من روح الله والأمن من مكر الله**.

الآن سنرى: لماذا هما من الكبائر! لماذا اليأس من روح الله كبيرة؟ ولماذا الأمن من مكر الله كبيرة؟ وبعد ذلك سيتبيّن من خلال الأدلّة الأمر أكثر من ذلك.

الآن الّذي يعرف الله حقّ المعرفة، يعرف سعة رحمة الله، خصوصًا لو تأمّل في النّصوص، ورأى أنّ الله -عزّ وجلّ- قد سمّى نفسه أسماء كثيرة من أصل صفة الرّحمة، يعني لو بدأنا من عند ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[1]، اسمان لصفة واحدة ظاهرة واضحة، يعني

⇐ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾، ذو الرّحمة الواسعة.

⇐ ﴿الرَّحِيمِ﴾، ذو الرّحمة الواصلة.

وهذه الصّفة الّتي هي **"الرّحمة"** منها أسماء كثيرة، منها مثلًا من الأسماء أنّ ربّ العالمين لطيف، يعني لطفه له وجهان من جهة العلم، يعني الله لطيف في علمه، يعلم لطائف المسائل ودقائقها، ولطفه من آثار رحمته أيضًا، يعني اسم اللّطيف له معنيان:

---

(١) الفاتحة: ٣.

١) معنى من جهة العلم.

٢) ومعنى من جهة الرّحمة.

اسمه الرّؤوف أيضًا -سبحانه وتعالى- من آثار رحمته.

إذًا: هناك أسماء كثيرة لو تأمّلتها لله عزّ وجلّ؛ تجدينها تعود إلى رحمة الله. فالّذي يعرف الله حقّ المعرفة لا يمكن أن ييأس من روحه. نحن الآن نفكّر لماذا اليأس كبيرة؟ والأمن من مكر الله كبيرة؟ أوّل الأمر دعنا نفكّر: في اليأس، نترك الأمن.

أوّل الأمر: لا ييأس إلّا الّذي لا يعرف ربّنا، لماذا؟ لأنّ الله قد وصف نفسه بالرّحمة، وسمّى نفسه أسماء كثيرة تعود إلى رحمته، يعني تبيّن لك أنّ الله ذو رحمةٍ واسعة. وجاء في القرآن إثبات الصّفة، وتعدّد الأسماء العائدة إلى هذه الصّفة؛ فالّذي ييأس من رحمة الله لا يعرف الله، لا يعرف أنّ الله سمّى نفسه ووصف نفسه بهذه الأوصاف، فتصير المشكلة عائدة إلى جهله بالله.

ولذلك كما هو متبيّن أمامكنّ في الدّليل، من الّذي ييأس من روح الله؟ في الآية: ﴿لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، يعني الّذين أتوا إلى كلّ الأسماء والصّفات الدّالّة على رحمته وغطّوها، كفروا بها، أنكروها، كأنّهم أنكروا رحمة الله، فالّذي ييأس من روح الله أنكر رحمة الله. فيصير كافرًا لأنّه أنكر رحمة الله.

معنى ذلك: سمّى الله نفسه في كتابه بالرّحمة، أسماء متعدّدة تعود كلّها إلى وصف الرّحمة، وصف نفسه وصفًا صريحًا، بل زائدًا على ذلك أنّه -سبحانه

وتعالى- لمّا أخبر عن رحمته، أخبر عن عرشه: ﴿الرَّحمَٰنُ عَلَى العَرشِ استَوَىٰ﴾[1]، وهذا فيه دلالة واضحة على أنّ رحمته -سبحانه وتعالى- أوسع الصّفات، كما أنّ عرشه -سبحانه وتعالى- أوسع المخلوقات، فكلّما أتى أحد وغطّى هذه الصّفة يكون أجرم في حقّ الله؛ بل أيضًا الله -سبحانه وتعالى- قد حكى في كتابه كيف ينجّي المؤمنين؟ كيف يعطي المؤمنين؟ كيف يلطف بالمؤمنين؟ كيف لطف بأمّ موسى عليه السّلام؟ ماذا فعل بأم عيسى عليه السّلام؟ ماذا فعل بالرّجل المؤمن الصّالح في سورة غافر؟ ماذا فعل بالرّجل المؤمن الصّالح في سورة يس؟ كلّ هذه القصص الّتي تدلّ على أنّ الله يُعامل عباده برحمته؛ الّذي ييأس من روح الله، كأنّه يغطّيها كلّها!

إذًا: لماذا الّذي ﴿يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ يصير كافرًا؟ لأنه غطّى ثلاثة أمور، ثلاثة معارف:

١) كلّ الأسماء الّتي وردت في كتاب الله الدّالّة على رحمة الله، ومعها كلّ المرّات الّتي وصف الله بها نفسه أنّه ذو رحمة واسعة. جاء إلى هذه الآيات -والعياذ بالله- وقال: (كفرت بها)! الّذي ييأس من روح الله كأنّه يقول: (كفرت بها)! -نعوذ بالله-.

٢) ليس هذا فقط إنّما يتجاهل ما ورد في كتاب الله من قصص كثيرة تدلّ على أنّه يرحم المؤمنين، يلطف بالمؤمنين، يرعى المؤمنين، يُدبّر المؤمنين. يأتي إلى هذه القصص كلّها، وكأنّه يقول: (لا أنا ما أراها، ولا أسمعها، ولا أفهمها، ولا أعتقد أنّ ربّنا سيُعاملني بذلك).

---

(١) طه: ٥.

٣) يأتي إلى معاني دقيقة في كتاب الله ويتجاهلها، **مثل**: اقتران اسم ﴿الرَّحمَٰنُ﴾، باستوائه -سبحانه وتعالى- ﴿عَلَى العَرشِ﴾، وما يدلّ على ذلك أيضًا من لطائف الدّلائل على رحمة الله، الآن يتجاهل الأدلّة الصّريحة، يتجاهل القصص الصّريحة، يتجاهل لطائف الأدلّة:

⇐ **من لطائف الأدلّة:** ﴿الرَّحمَٰنُ عَلَى العَرشِ استَوَىٰ﴾.

⇐ **من لطائف الأدلّة:** ما أخبر سبحانه وتعالى، وحذّر من عذابه؛ فإنّ كلّ التّحذير من عذابه من آثار رحمته، كأنّه يُقال: لا تقع في العذاب، لا تُعرّض نفسك للعذاب، لا تفعل العذاب، لا تفعل أفعالًا توصلك للعذاب.

⇐ **من لطائف الأدلّة:** كلّ المرّات الّتي عرض علينا فيها كيف نصل إلى محبّته تعتبر من لطائف رحمته.

فصار الشّرع كلّه، والدّين، يعود إلى رحمة الله؛ فالّذي يترك الشّرع والدّين إنّما يتركه صراحةً أو يتركه باليأس من روح الله؛ لأنّ الّذي ييأس من روح الله هو الّذي يذهب ويقتل نفسه! الّذي ييأس من روح الله هو الّذي يذهب لإدمان المخدّرات! بحيث أنّه يهرب من واقعه بهذه الطّريقة؛ بدلًا من أن يفرّ إلى الله، فرّ إلى هذه الأمور! لماذا يفرّ إلى هذه الأمور! السّبب الرّئيس في ذلك أنّه كفر بهذه الآيات، أنت تقولين: (ما أنكرها؟)، **نقول**: لا! لكن هو فعلًا أنكرها، بمشاعر قلبه أنكرها!

طبعًا من يتولّى النّفخ على نار اليأس؟ الشّيطان. فهذا يتشمّم قلبك إذا وجدك من الجماعة المائلين إلى اليأس، فقد وجد بغيته! فماذا يفعل! ينفخ، وينفخ، وينفخ في اليأس حتّى لا تقدرين أن ترفعي يدك من كثرة إحساسك أنّك مشلولة! فحين يجد الشّيطان فريسة مثل هذه، كيف لا يغتنم الفرصة! نعم سيأخذها أخذًا!

فالمقصد الآن: أنّ اليائس من روح الله لماذا ارتكب كبيرة من كبائر الذّنوب عظيمة! لأنّه أتى إلى ما في القرآن وغطّاه، وتجاهله، وكأنّه وصل إلى الكفر به! ولذلك في الآية: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾: الكافرون الّذين غطّوا هذه المعاني. و **اتّفقنا**: على الثّلاثة، فالّذي ييأس:

١) نسي أنّ ربّنا رحمن، وأنّ رحمته وسعت كلّ شيء، وأنّ أسماء متعدّدة تعود إلى رحمة الله.

٢) ونسي ما حكى لنا ربّ العالمين من قصص في القرآن، تخصّ الأنبياء أو غير الأنبياء، كيف نزلت رحمته عليهم.

٣) ونسي كثيرًا من اللّطائف القرآنيّة الّتي في نهايتها تدلّ على أنّ الشّريعة كلّها إنّما هي رحمة، بل إرسال الرّسول نفسه رحمة؛ وأنت تفكّرين: كلّما تناقشنا أكثر سنجد أنّ الدّين كلّه عبارة عن رحمة، فالّذي ييأس من روح الله؛ أتى لهذا كلّه وتجاهله تمامًا!

فلأجل ذلك هي جريمة، ولابدّ أن نعرف أنّ هذه الجريمة -ونحن متّفقون الآن أنّ الشّيطان ينفخ عليها- لكن ليس الشّيطان فقط الّذي ينفخ فيها،

كذلك الخلق أنفسهم في التّربية، أو في المسؤوليّة يصلون بالنّاس لليأس من روح الله، يعني في التّربية سواء كانوا أبناءنا، أو في الدّعوة إلى الله أيضًا من الممكن أن يصلوا بالنّاس بأسلوبهم إلى اليأس من روح الله.

وهذا مثل ماذا؟ هذا مثل أن يكون الأب أو الأم قد تجاوزوا مرحلة الشّباب، وانتهوا من هذه الأمور الّتي تعتصر الفؤاد، واستقرّت نفسيّاتهم، كبروا، نضجوا، أبنائهم الآن يواجهون كثيرًا من الفتن والصّعوبات، والآباء يرون الأبناء مذبذبين، فطوال الوقت يقول له: (والله ربّنا لا يقبل منك! مثلك أنت لن يعرف الجنّة ولن يعرف طريقها)! ومثل هذا الكلام سيُخرّج أحدًا طوال حياته يشعر أنّه لا يمكن أن يدخل في رحمة الله!

وإنّ هذا الأمر اليوم نحن نجد حصاده! يعني النّاس الّذين أعمارهم اليوم في الأربعين، نجد حصاد هذه التّربية الّتي جاءت في الوسط هكذا، وكان فيها شيء من الاتّجاه نحو اليأس: (أنّه إذا لم تسر على الصّراط المستقيم، ولم تخطئ أيّ خطأ، فإذا أخطأت أيّ خطأ فقد خرجت من رحمة الله)! إذًا: هذا صار العامل الثّاني.

العامل الأوّل طبعًا الّذي ينفخ فيه الشّيطان، ونحن في هذا تحت عنوان **"العوامل الجالبة لليأس"**:

١. الشّيطان يأتي من أهمّ العوامل.

٢. والتّربية أيضًا من العوامل المهمّة.

لكن سنرجع نقول: إنّ أصل المسألة عائدة إلى النّفس، يعني الشّيطان والنّاس لن يقدروا على السّيطرة عليك سيطرة في مسألة التّيِئيس إلّا إذا كنت أنت أصلًا مستعدّ لهذا اليأس!

من هو المستعدّ لليأس؟ هل الإنسان بطبيعته مستعدّ لليأس؟ هناك بعض طبائع النّاس، أمّا فطرة النّاس فإنّ الله -عزّ وجلّ- فطر النّاس على أحسن فطرة، هذه فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها. لكن نحن لا نتكلّم عن الفطرة وإنّما نتكلّم عن الطّباع، **مثلما** تقولين شخص غضوب شديد الغضب، وشخص متسامح، وشخص سهل، شخص صعب، أليس النّاس هكذا! كذلك هناك في طبائع النّاس طبع مائل إلى اليأس، دائمًا يائس! هذا الطبع يحتاج أن يَسُوسُ نفسه سِيَاسَة[١] صحيحة لأجل أن يبعد نفسه عن اليأس.

طبعًا لو ابتلي فوق طبعه بمحيطين يُيئِّسُونه[٢]؛ يكون هذا شأن عظيم! فأنت حين تربّين، أو تدعين؛ لابدّ أن تلحظي الّذي أمامك هل هو مائل إلى هذا الطّرف؟ أو مائل إلى هذا الطّرف؟

المشكلة: أنّ الطّرفين اليأس والأمن يلتقيان في نقطة، ما هي هذه النّقطة! ترك الاستقامة! الاثنان يلتقيان في نقطة ترك الاستقامة! بمعنى ما دمنا في دخولنا وخروجنا نقول له: (هذه الصّلاة والله ما تُقبل! هذه الصّلاة والله ما

---

(١) معنى سَاسَ في معجم المعاني الجامع _ **ساسَ**: (فعل)، أَسُوسُ، سُسْ، **مصدر**: سِيَاسَة، **سَاسَ أُمورَ النَّاسِ بِالحَقِّ**: تَدَبَّرَهَا، تَوَلَّى تَدْبِيرَهَا وَتصْرِيفَهَا.

(٢) معنى يَأَّسَ في معجم المعاني الجامع _ **يأَّسَ**: (فعل)، يُيئِّس، تيئيسًا، فهو مُيئِّس، والمفعول مُيأَّس، **يأَّسَ صديقَه**: أيأسه، أفقده الأملَ وجعله ييأس.

تُقبل)! في النّهاية ماذا يفعل! يترك الصّلاة! يصير هو والّذي أمن من مكر الله، يلتقيان في نقطة، في أنّهما الاثنين: هذا أمن من مكر الله، والثّاني -والعياذ بالله- هناك فترة طويلة جاء هذا الكلام يقول: (أنا داخل النّار داخلها)! كأنّ النّار هذه أمر هيّن! حتّى اللّسان من المفترض أنّه لا يجرؤ على مثل هذا!!

المقصد: أنّه كيف نُفخ في هذه المسألة؟

١) الشّيطان.

٢) والبيئة تساعد على ذلك.

٣) وهذا كلّه معتمد على نفس الإنسان.

يعني حين تختبر نفسك -وهذه هي المشكلة أنّنا لابدّ أن نكون بصيرين بأنفسنا، من أجل أن نسوسها، سُسْ نفسك!- فتجدها مائلة إلى اليأس جُرّها بحبال الرّجاء، وإذا وجدتها مائلة إلى الأمن جُرّها بحبال التّخويف، فهي تتقلّب، وتتغيّر!

والله -عزّ وجلّ- قال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، نحن ما هي وظيفتنا؟ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[(١)]، فكأنّ الكلام عن السّياسة، كأنّه الكلام عن التزّكية، زكّيها، ايت بها من هنا، ومن هنا، قولي لها كذا، وقولي لها كذا إلى أن تستقيم على الطّريق المستقيم.

هذا موضوع مهمّ جدًّا! واليوم للأسف الشّديد كثير من مظاهر الاستسلام للفتن جاء من اليأس من روح الله؛ وبسبب الفتن النّاس بدلًا من أن تقوى

---

(١) الشمس: ٧_١٠.

عزائمهم لأجل أن يقاوموها، ماذا يحصل؟ تضعف عزائمهم وييأسوا من روح الله، ويأتي كلّ واحد يقول للثّاني: (أنت تريد أن تصلح ماذا؟) يقول لك: (وجدنا كذا لمّا ذهبنا إلى كذا) ويشيعون الفاحشة بين الّذين آمنوا، وييئسونهم من العودة إلى الطّريق المستقيم!

فلذلك هذا الموضوع لابدّ أن يأخذ منّا وقتًا طويلًا في النّقاش، ونعرف بالتّفصيل مظاهر هذه الكبيرة.

تصوّري: تأتين لأحد وتقولين له: (إنّه لن يُصْلَحَ المجتمع! ولن نسير إلّا من سيء لأسوأ)! هذا الكلام اسمه: **كبيرة اليأس من روح الله**، بهاتان الجملتان ارتكبتِ كبيرة طالما قلبك معقود على ما تقولين! وإذا كنت تقولين كلامًا وقلبك خلافه هذه قضيّة أخرى، يعني هذه قضيّة المنافقين الّذين يخذّلون المؤمنين

- إذا كنت تعتقدين **فإذًا**: أنت يائسة.
- وإذا كنت لا تعتقدين وتخذلين المؤمنين بهذا الكلام معناه: أنّ هذا يُدخل الإنسان في النّفاق.

فَكِلاَ المسألتين مصيبة كبيرة!

سؤال: ...

الأستاذة: اليأس من روح الله، والأمن من مكر الله ممنوعان؛ وإنّما الأمل في الله، لا تيأسي أبدًا من روح الله، وكم مرّ على الأمّة! وعادت وتقوّت. والّذي يقول: (آخر الزّمان! وآخر الزّمان)! أين آخر الزّمان! آخر الزّمان له من المعالم

ما له، الآن احسبي المسلمين، حتّى لو كان بدون مظاهر الإسلام، احسبي المسلمين، هل هم منحصرون أم منتشرون! منتشرون.

هل يدخل الكفّار في الإسلام أم لا يدخلون في الإسلام! يدخلون.

كيف مع هذا الكلام تقولون: (آخر الزّمان)! كيف هذا مع هذا! فإنّ آخر الزّمان ينحصر الإسلام، وينحصر حتّى أنّ النّاس لا يسمعون كلمة (لا إله إلّا الله) فنشر بأنّنا نحن في آخر الزّمان! وهذه علامات آخر الزّمان! فإنّ هذا أيضًا من التّشويش الّذي يأتي للنّاس باليأس وأنّه لا يوجد هناك إصلاح! وكلّما ظهرت ظاهرة أوصلنا أنفسنا لليأس! والاستغفار، والتّوبة، والباب المشروع بيننا وبين الله، المفتوح، ونداء الله للخلق كلّ ليلة في الثّلث الأخير من اللّيل، أين يذهب هذا كلّه! أين يُدفن! كيف تذهب الآمال!

حين نريد أن نصل إلى تفسير لظاهرة -لا نريد أن نقول ظاهرة، لكن واقع لا نستطيع أن نخفيه- الانتحار! وكوننا بعدما كنّا لا نسمعه أبدًا! وكان العلامة على أهل الكفر، صرنا نسمعه في ديار الإسلام، ونسمعه هنا، وهنا، ونسمعه بطرق مفجعة، وبين الّذي هو مخفي، وبين الّذي يظهر في الإعلام والنّاس يسمعونه! مثل هذا لماذا يصل للخلق؟ بسبب اليأس من روح الله!

لا يصل بالنّاس أن يفعلوا هذا الفعل ومعهم إيمان، إلّا أنّه هناك شيء أوصلهم إلى اليأس من روح الله! فلا اليأس طريق! ولا الأمن طريق! إنّما:

- ✓ نعرف ربّنا حقّ المعرفة.
- ✓ ونجمع بين الرّجاء والخوف.

وكلّ هذا مركّب على تركيبة واحدة، وهو: أنّ النّاس يعبدون الله، وهم لا يعرفون الله! هذه هي المشكلة!

الله سمّى نفسه بأسماء، ووصف نفسه بصفات، وأنزل كتابه على رسوله، ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾(١)، أنزل كتابه من أجل أن تعرفوه، ﴿اعلَمُوٓا﴾، ﴿اعلَمُوٓا﴾، وبعدها أسماء الله وردت في القرآن أكثر من واحد وثلاثين مرّة! واحد وثلاثون مرّة الله يأمرنا أن نعلم عنه، فحين تصير هناك عبادة بدون علم عن الله، تأتي هذه الفجوات الكبيرة!

ما عندنا عذر! كتاب الله بين أيدينا مقروء، ومسموع، والنّاس -الحمد لله- متعلّمون، وأهل السّنّة والجماعة بفضل الله، رايتهم مرفوعة، وتعلّم أسماء الله أصبح أمرًا يسيرًا، بين الكتاب الصّغير والمتوسّط والكبير، بين الشّروح المسموعة وبين المقروء؛ كلّ هذا موجود، فليس لدينا عذر أن نترك معرفة الله! فترك المعرفة هو الّذي يسبّب هذه المشكلة الكبيرة الّتي نعاني منها.

هذا جزء من الكلام عن اليأس، نحن لن ننتهي في لقاء أو لقاءين، الظّاهر أنّ هذا النّقاش سيبقى ثلاث لقاءات، أو أربعٍ لأهميّته، لكن نأخذ الجزء الثّاني الآن ونناقشه، وهو: الأمن من مكر الله، وندخل مباشرةً في الأمن من مكر الله على الآية الّتي أوردها الشّيخ.

---

(١) الطلاق: ١٢.

التّعليق على الدّليل الثّاني موطن سورة الأعراف (٩٩)

أورد الشّيخ في المتن قوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَٰسِرُونَ﴾، سنأخذ الآية، ونرجع للأعراف، ونتناقش فيها، هذه الآية في سورة الأعراف.

من أجل أن نتصوّر ما هو الأمن من مكر الله؟ سنبدأ بالكلام عن مكر الله نفسه، هذه الصّفة لله.

سنبدأ بالآية (٩٤)، إلى أن نصل إلى الآية (٩٩)، الّتي استشهد بها الشّيخ.
أوّل شيء نتّفق: كيف أنّ الجملة مركّبة في الكبيرة: **"الأمن من مكر الله"**:

فأوّل شيء سنتّفق: على كلمة (مكر الله).

ثمّ بعد ذلك نرى: ما هو الأمن من مكر الله؟

حين نقول: ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾، نقول: هذه الصّفة لله نُثبتها مقيّدة. لابدّ أن تحفظن هذه الجملة جيّدًا. ماذا تعتقدون في هذه الصّفة؟

الآن الكبيرة اسمها: **الأمن من مكر الله**، وَصْفُ الله هنا أنّه -سبحانه وتعالى- له مكر، وأنت تعرفين أنّ الله ما يُوصَفُ إلّا بالكمال؛ فكيف ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾ هنا يُعتبر كمالًا؟ **الجواب:** أنّ الله يمكر بالماكرين، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1].

إذًا: متى يُعتبر المكر صفة كمال؟ حين يُمكَر بالماكرين. والمكر شيء، والخيانة شيء آخر تمامًا؛ ولذلك الله -عزّ وجلّ- في كتابه أخبر: ﴿وَإِن يُرِيدُوا

---

(١) الأنفال: ٣٠.

﴿خِيَانَتَكَ﴾، ماذا؟ ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡ﴾ [1]، ما قال الله فخانهم؛ وإنّما قال: ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡ﴾.

فالمكر شيء، والخيانة شيء، ما هو الفرق بينهما؟

⇐ **الخيانة**: هي الغدر في موطن الائتمان، أكون مؤتمنك وتكونين مؤتمنة لي، والجار مؤتمن للجار، هذا الموطن الآن الأمن، فيقوم أحدهما بغدر الآخر!

⇐ **أمّا المكر والخديعة**: فإنّهما في مواطن المكر.

ولأجل أن تظهر المسألة، دعنا نعتبر المكر والخديعة شيئًا واحدًا. وأنت تسمعين أنّ الحرب خدعة! وقد ذُكر أنّ عليّا رضي الله عنه، في أحد المعارك الّتي يحارب فيها الأعداء، خرج للمبارزة، فلمّا خرج الّذي يُبارزه، قال عليّ رضي الله عنه: (خرجت لأبارز رجلًا لا لأبارز رجلين)، فالتفت الرّجل الّذي من الأعداء لأجل أن يرى من خرج وراءه، فقتله عليّ رضي الله عنه من باب الخدعة. هل نقول لا ما يصير ولابدّ أن نكون آمنين في الحرب! لا! الحرب خدعة. يعني في مواطن الأمن أنا وجاري، نحن مثلًا وجماعة تعاهدنا حتّى لو كانوا أعداء، ما دامت هناك عهود؛ **إذًا**: نقضها يعتبر خيانة، لكن إذًا ما كانت هناك عهود، يصير **معنى ذلك**: المكر بالماكرين.

سنضرب مثالًا من أجل أن تتصوّري: ما هي المصلحة في مكر الماكرين؟ مثلًا: يأتي أحد في وزارة من الوزارات ولا يتمّ الإجراءات الورقيّة إلّا حين

---

(١) الأنفال: ٧١.

يرتشي، ومن ثمّ ماذا يفعل في مصالح المسلمين! يعطّلها -طبعًا- وينصب على المسلمين! فيضعون له كمين؛ هذا الكمين إنّما هو مكر به. هل نقول حرام ما يصير نمكر به! لا!

إذًا: المكر يكون بالماكرين. **إذًا**: هي صفة كمال حين نستعملها مع أهلها. فحين نأتي في كلام عن الله -عزّ وجلّ- ماذا تقولين! يمكر الله بالماكرين.

معنى ذلك: المؤمن يجب أن لا يأمن مكر الله، معناها: أنّه لابدّ أن يُحاسب نفسه محاسبة دقيقة على تصرّفاته، لأجل أن لا يكون ممّن يمكر بنعم الله، أو يمكر برسل الله.

انظري إلى الخلق حين يكونون مرضى، أو دعنا: نأتي بالمثال الّذي يُكرّر في كتاب الله: حين يركبون الفلك: ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ ﴾[1]، يصيرون أناسًا آخرين! فهكذا هم يصيرون قد مكروا، ويعتقدون أنفسهم أنّ مكرهم ينفذ على الله! فالله يمكر بهؤلاء الماكرين الّذين يمكرون بالنِّعَم، يعني يمكرون بالنِّعَم، يمكرون بالشّريعة، مثل حين يأتون إلى شرع الله ويستدرجون النّاس، فيأتون بطلبة علم ضعاف ويقولون لهم: (نريد مناظرتكم في الإلحاد أو في غيره)! ويستدرجونهم حين يخرّجوهم بصورة ضعفاء! لا يفهمون! ما عندهم دليل! فهذا كلّه من صور المكر بالله، وبدين الله، وبرسل الله، وبالمسلمين.

مثل المخادعات الكثيرة الّتي تراها حولك، يخدعون المسلمين، ويخدعون العفيفات، ذوات الخدور بأمور الله أعلم بها، فالمكر بمثل هؤلاء يكون مكرًا في

---

(١) العنكبوت: ٦٥.

مكانه، فهم يستدرجون النّاس إلى الباطل، والله -عزّ وجلّ- يبتليهم ببلاءات تكون من الله مكر لهم.

في الآيات الآن سيتبيّن مكر النّاس، ويتبيّن مكر الله بهم. نبدأ من الآية (٩٤)، موطن هذه الآية بعدما ذكر الله -عزّ وجلّ- قصص الأنبياء في السّورة، يعني أورد -سبحانه وتعالى- في هذه السّورة قصّة نوح عليه السّلام، وقصّة هود، وقصّة صالح، ولوط، وشعيب، بعدما ذكرهم أتت هذه الآية (٩٤)، فيها إجمالي معاملته بأهل القرى، سواء الّذين مضوا، أو سنّته في معاملة أهل القرى، يعني الّذي سنقرأه الآن: سنّة الله في معاملة أهل القرى، وسنرى كيف أنّ أهل القرى يمكرون بنعمة الله؟

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[١].

دعنا ننظر فقط لهاتين الآيتين، ثمّ بعد ذلك نرى أنّه سيتبيّن لنا كيف أنّهم مكروا بنعمة الله وكيف أنّ الله مكر بهم؟ ما سنّة الله في معاملته لأهل القرى؟ سنّته:

١) أن يرسل إليهم رسولًا يدعوهم إلى دين الله.

٢) فإذا كذّب القوم ابتلاهم الله بالبأساء والضّرّاء.

(١) الأعراف: ٩٤_٩٥.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، من أجل ماذا يحصل لهم هذا؟ معناها: تصيبهم الأمراض، الأسقام، الجوع، النّقص؛ كلّ هذا ليحصل منهم الحاجة إلى ربّ العالمين، لأجل أن يعرفوا أنّ هذا الّذي يتمتّعون به إنّما هو من عند الله، ليس بِقُوَاهُمْ، ولا بقدرتهم، لا تحصيله ولا حفظه، لأجل أن يتنبّهوا إلى النِّعَم الّتي أعطاهم الله إيّاها: ﴿لَعَلَّهُم يَضَّرَّعُونَ﴾؛ **إذًا:** هذه هي الغاية، يعني لا يريد الله أن يعذّبهم؛ وإنّما يريد أن ينبّههم، لأجل أن يحصل التّنبّه أنّه ما عليك من مال، وطعام، وكساء وأمن، وما عليك من صحّة؛ إنّما هي من عند الله، تنقص قليلًا من أجل أن تشعري أنّها من عند الله.

هؤلاء ماذا فعلوا؟ ﴿لَعَلَّهُم يَضَّرَّعُونَ﴾، لكن هم في الحقيقة لم يضّرّعوا! ماذا فعلوا؟ تركوا التّضرّع وزادوا كبرًا! ماذا فعل الله بهم! انظروا: الآية الّتي بعدها: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ﴾. يعني بدّل الله مكان الحالة السّيّئة الحالة الطّيّبة الحسنة، فأصبحوا في عافية في أبدانهم، وسعةً ورخاء في أموالهم. لماذا؟ إمهالًا لهم، يعني كانوا في ﴿السَّيِّئَةِ﴾، وصاروا في ﴿الحَسَنَةَ﴾.

﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾، يعني كثروا، وكثرت الأشياء عليهم. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[1]، ﴿العَفوَ﴾، بمعنى الزّائد.

﴿وقَالُواْ﴾، الآن كيف فسّروا الحالة الّتي هم عليها؟ أعادوا هذا الأمر، الّذي هو وجود البأساء والضّرّاء، وبعد ذلك ما تضرّعوا، ثمّ أتاهم من عند الله -عزّ وجلّ- النِّعَم ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾، بماذا فسّروه؟ بأنّ: (هذا هو فعل الأيّام واللّيالي!

(١) البقرة: ٢١٩.

الدّنيا! الدّهر يوم يعطي أهله ويوم يمنع أهله)! ما فسّروها بأنّ هذا من فعل الله ليُريهم: أنّ المنع تأدّب، وأنّ العطاء من أجل أن يحصل الشّكر.

﴿وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾، ف حين لم يتضرّعوا في حال الحاجة، ولم يشكروا في حال النّعماء، ماذا فعل الله -عزّ وجلّ- بهم؟ ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، إذًا: النّعماء في هذه الحالة مكر بهم.

لمّا جاءتهم ﴿الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، وما تضرّعوا، بدّل الله بحالهم ﴿الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا﴾. هم ماذا فهموا من ﴿الْحَسَنَةَ﴾؟ فهموا بأنّ ﴿الْحَسَنَةَ﴾ إنّما هذا حال الزّمان، وما فهموا أنّ هذا استدراج لهم! فكان مكر الله بهم أن يستدرجهم بالنّعماء! متى يكون هذا؟ فليست كلّ نعمة استدراج!

لابدّ أن تفكّري في الآية الّتي قبل، وبعد ذلك تعرفين أنّ النّعمة استدراج. متى تكون استدراجًا! إذا كان الإنسان قائمًا على المعاصي، إذا كان الإنسان باقيًا على البعد عن الله، إذا لم يكن هناك توبة واستغفار، تكون النّعماء بمثابة المكر بهؤلاء.

إذًا: ليس كلّ نعماء استدراج، وليس كلّ نعماء مكر من الله بالعباد. متى تكون النّعماء مكرًا؟ حين يكون يسبقها أنّ الله يمرّر عليكِ البأساء والضّرّاء لأجل أن تتضرّعي فتهملي هذا، ولا تتوبين ولا تستغفرين، فتأتيك النّعماء وأنت لم تتوبي عن الذّنوب والمعاصي، وجاءتك الضّرّاء لأجل أن تتذكّري ولم تتذكّري، تأتي النّعماء يكون فيها استدراج.

ومن الممكن أن يكون الإنسان في لحظات النّعماء يخاف، فإذا خاف تاب عن الذّنب، وشكر النّعمة، يخرج من حال الاستدراج، ولذلك انظري: الآية الّتي بعدها الآن:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

الشّرط هنا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾، لجاءتهم النّعماء، ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، يعني ما كان بُدّل مكان السّيّئة الحسنة استدراجًا لو ﴿آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾، كانت فُتحت عليهم النّعماء من باب البركات. يعني الآية السّابقة: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾، لكن هنا من أجل الاستدراج مكرًا بهم.

متى يلحق النّاس النّعماء ولا تكون مكرًا؟ لو آمن أهل القرى. يعني ممكن أن يكونوا غافلين، تأتيهم البلايا والنّقائص من أجل أن يستفيقوا، من أجل أن يستيقظوا من غفلتهم؛ إذا استيقظوا وقابلوا ضعف الإيمان بقوة الإيمان، وقابلوا الذّنوب بالتّقوى ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، يعني لا يدرون من أين ستأتيهم البركات، تنزل من السّماء، وتتفجّر لهم من الأرض، لكن الواقع أنّهم لمّا أصابهم البأساء والضّرّاء بدلًا من أن يتضرّعوا تكبّروا! قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

(١) الأعراف: ٩٦.

إلى الآن نحن فقط تصوّرنا الحالة: كيف أنّ الله -عزّ وجلّ- يُعامل عباده، وكيف أنّه -سبحانه وتعالى- يمكر بالماكرين؛ لأنّهم مكروا بالنِّعَم من جهة أنّها:

⇐ لمّا جاءتهم البأساء والضّرّاء ما استيقظوا!

⇐ ولمّا جاءتهم النِّعَم نسبوها لغير الله ما خافوا أن يكون مكرًا!

فما هي حالتهم؟ الأمن من مكر الله!

حين تقولين له: (أنت على معصية وانظر إلى النِّعَم دارّة عليك!)؛ يقول: (هذا من تجارتي! هذا من قوّتي! هذا من ميراثي)! إلى آخره؛ يكون في حال الأمن من مكر الله، ما عَلِمَ أنّ النِّعَم المتتابعة إنّما هي استدراج! يكون يظلم بقوّته، يظلم بصحّته، يظلم بسُلطته؛ والسُلطة تزيد له، تزيد الصّحة له، تزيد القوّة على الأفعال له، وهو يرى نفسه يزيد! ويقول: (لو كنت على خطأ لذهب عنّي)! فيأمن مكر الله!

الآن ستظهر لنا كلمة الأمن:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[١].

معنى ذلك: أن هذه الحالة الّتي هم عليها إنّما هي حالة الأمن من مكر الله.

ما هو مكر الله بهم؟ مكر الله بهم أنّهم ظنّوا أنّهم في مَنْجَاةٍ ومَأْمَنٍ من عذاب

---

(١) الأعراف: ٩٧_٩٩.

الله! وممكن أيضًا أن يصل بهم الحال أن يظنّوا أنّ الله راضٍ عنهم! وممكن أن يتطوّر الأمر لهذه الدّرجة! يعني يكونون مذنبين، أساؤوا في معاملة ربّ العالمين، جاءتهم البأساء والضّرّاء ما تضرّعوا، بُدّلَ وفُجِئُوا، يعني سنين وهم في قحط، ولا يستغفرون ولا يتوبون ولا يتضرّعون، وبعد ذلك يتفاجؤون بأنّ الأمطار تنزل عليهم، وأنّ الزّرع يخرج، وأنّ النّبات موجود، وأنّ الحصاد موجود؛ جاءتهم هذه المفاجئة مشوا معها! ما فكّروا: (أنّنا كنّا لا نُمْطَر! ولا يُنبت لنا في الأرض! وبعد ذلك أصبحنا نُمْطَر، ويُنبت لنا)، فالانتقالة من هذه الحال إلى هذه الحال ما سببها؟ ما حالها؟ هل نحن تبنا واستغفرنا! أم أنّ هذا من باب الاستدراج والمكر! يعني لو نحن في الواقع الآن يأتون يقولون لك: (والانخفاضات الجوّيّة، والأحوال، وسحابة سيبيريا)! ويفلسفون لك الأمر إلى درجة أنّك تقتنعِين أنّ هذا من آثار الأحوال الطبيعيّة، وأنّه لا إيمان ولا عصيان يؤثّران في الخصب، والعطاء، والرّزق! ومن ثمّ يدخل الإنسان في المكر بكلّ سهولة! يدخل في الأمن من مكر الله، يظنّ أنّه في مَنْجَاةٍ ومَأْمَنٍ من عذاب الله!

ولذلك ماذا قال الله عزّ وجلّ؟ ﴿أَفَأَمِنَ أَهلُ القُرَىٰٓ﴾، بعدما كلّ شيء صار على راحتهم! ﴿أَفَأَمِنَ أَهلُ القُرَىٰٓ أَن يَأتِيَهُم بَأسُنَا﴾، هذا سؤال استنكار لهم، يعني أيظنّ أهل القرى أنّهم في مَنْجَاةٍ ومَأْمَنٍ من عذاب الله؟

وخُصّص هذا الوقت أن يأتيهم هذا العذاب متى؟ ليلًا ﴿وَهُم نَائِمُونَ﴾. وبعد ذلك أتى الكلام عن الوقت الثّاني: ﴿أَوَأَمِنَ أَهلُ القُرَىٰٓ أَن يَأتِيَهُم بَأسُنَا ضُحًى وَهُم يَلعَبُونَ﴾، يعني كيف يأمن أهل القرى أن يأتيهم العذاب وقت

الضّحى، وهم غافلون، متشاغلون بأمور دنياهم! من أين أتى هذا الأمن! لماذا خُصَّ هذان الوقتان؟ لأنّهما أكثر وقتين يكون الإنسان غافلًا فيهما؛ الإنسان يكون أغفل ما يكون:

⇐ في وقت النّوم في اللّيل!

⇐ وفي وقت الضّحى في العمل!

ولاحظي: العمل سُمّي ﴿يَلعَبُونَ﴾! لأنّه عمل في الدّنيا.

يخرج من هذا الوصف المؤمن، الّذي حين يعمل في دنياه:

✓ يريد الكفاف.

✓ يريد الإنفاق في سبيل الله.

✓ ينسب النّعمة إلى الله.

هذا يخرج من وصف عمله بأنّه لعب، لكن كلّ أحد آخر ممّن يُمكر به.

أتت الآية (٩٩)، هي موطن الشّاهد، يعني هذه الحال الّتي هم فيها، أمنهم هذا؛ إنّما أمن من مكر الله، أمن بسبب إمهال الله، أمن ما شعروا فيه أنّ الله يستدرجهم بالنّعماء، ما شعروا أنّ النّعماء الّتي يتنعّمون بها حين يضعون أقدامهم فيها، كأنّ وضع القدم هذا إنّما هو استدراج لهم من أجل أن يصلوا إلى مهلكهم.

أين هو الاستدراج؟ ما معنى الاستدراج؟ يعني يسير الإنسان في طريق يظنّ أنّه به يعلو في الدّنيا، وهو يمرّ في طريق ويمشي، ويمشي، هو بنفسه إلى أن يصل إلى الوضع الّذي يهلك به!

نفترض مثلًا: أنّ إنسانًا يدخل في الربّا، وهو يكون ليس مهتمًّا بأنّ المرابي عليه حرب من الله، ويقول: (كم من النّاس تعاملوا بالرّبا ونجحت أمورهم)! ولكن لا يدري هو نجحت أمورهم كيف!

فيمشي في خطوات، ويرى أنّ هذه الخطوات قد تسهّلت (تسهّل القرض، تسهّل أنّه يأخذ المال، تسهّل شراء ما يريد)! لا يدري أنّه يمشي ويمشي وفي نهاية الأمر سيُخسف به وبداره الأرض! كأنّه جهّز الوضع كلّه بيده هو من أجل أن يُهدم عليه، لكن في وقت لا ينفع فيه النّدم! إلّا أنّ التّوبة بابها مفتوح ما دام الإنسان باقيًا حيّا وفي قلبه إيمان.

الشّاهد الآن: الأمن من مكر الله، معناه: أنّ الإنسان ما به؟ ما الّذي ينقصه؟

⇐ **نقص الخوف من الله:** ما يحصل أمن من مكر الله إلّا بسبب نقص الخوف من الله!

⇐ **نقص معرفة الله:** وما يحصل من نقص من الخوف من الله إلّا بسبب نقص معرفة الله!

وإلّا فإنّ الإنسان في كلّ مرّة يكون مشغولًا بمكانه عند ربّ العالمين، دائمًا يسأل نفسه: (أنا مَنْ عند ربّ العالمين؟)، وحين يجد من نفسه تقصيرًا، ويرى نعماء الله عليه عظيمة؛ لابدّ أنّه يقع الخوف في قلبه. وكيف يُعالج نفسه؟

⇐ **تجاه الذّنب**: يتوب ويستغفر.

⇐ **وتجاه النّعماء**: ينسبها إلى الله ويشكر.

فالعبد من أجل أن تُفْتَح عليه البركات؛ لابدّ أن يجمع بين أمرين: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهلَ الْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَاتَّقَواْ﴾:

الأمر الأوّل: ﴿ءَامَنُواْ﴾: صدّقوا، تيقّنوا أنّ هذه النّعماء من عند ربّ العالمين، وشكروا نعمة الله عزّ وجلّ، ورجوا منه المزيد.

الأمر الثّاني: ﴿وَاتَّقَواْ﴾: ابتعدوا عن المعاصي والذّنوب، وخافوا أن تكون النّعماء من باب الاستدراج.

وإذَا جمعوا بين هذين الأمرين: بقوا دائمًا يسألون، بدون أن يستسلموا للشّيطان.

الآن عرفنا من الآيات: من هو الآمن من مكر الله! **لكن**: كيف نحذر الوقوع في الأمن من مكر الله؟ وكيف يحذر من الوسوسة في هذا الباب؟ لأنّنا من أوّل اللّقاء **اتّفقنا**: أنّ الإنسان لابدّ أن يجمع بين الخوف والرّجاء، ولا يتطرّف لأحد الطّرفين؛ لأن الشّيطان إمّا أن يأتي بك لليأس من روح الله! وإمّا أن يأتي بك للأمن من مكر الله! فالآن كيف أعالج المشكلة؟ وما أقع في الأمن من مكر الله، ولا أوسوس بالأمن من مكر الله؟

عندي مشكلتان:

المشكلة الأولى: أنّ الإنسان يقع في الأمن من مكر الله، فهو لابدّ أن لا يقع ويبقى خائفًا دائمًا.

المشكلة الثّانية: أنّنا نخاف أنّه كلّما جاءت نعمة قلت: (هذه استدراج)! وأصبحت توسوسين!

فهذه مشكلة، وما قبلها مشكلة، والاثنان حلّهما واحد!

ماحلّها؟ آمني! واتّقي! إذا شعرت بأنّك عليك نعماء وأنت صاحبة ذنوب وتقصير، لا تجعلي الشّيطان يصل بك إلى اليأس من روح الله أبدًا، افتحي على نفسك باب الاستغفار وأنت في مكانك، من أن يأتيك الشّعور بالخوف أن تكوني ممّن استدرج بالنّعماء، وأنت في مكانك قبل أن تتحرّكي استغفري على الذّنوب، واشكري على النّعماء، وانسبيها لربّ العالمين، واشكري، واطلبي من ربّنا بكلام واضح صريح، أن لا يجعلها استدراجًا، وأن يغفر كلّ ذنب يمنع أن تكون هذه النِّعمة بركة.

ولا يوجد أحد سيحلّ لك المشكلة، يعني لا أحد يأتي من الخارج، ويقول لك: (هذا ليس استدراجًا! وهذه نعمة من الله)! ليس هناك إلّا أنت الّتي تعرفين حالك مع ربّ العالمين، فلا تجعلي الشّيطان يحوّل المعرفة إلى وسواس!

فنحن دائمًا مشكلتنا في الكبائر القلبيّة: أنّ الشّيطان يغتنم فرصة معرفتك بالكبيرة، ويفسّر لك كلّ الأحوال عليها.

أنت الآن ماذا تفعلين؟ بمجرد أن تشعري بالخوف من أن تكون هذه النّعمة استدراجًا، كيف ستعبدين ربّ العالمين؟ اجمعي بين الأمرين:

١) استغفري من الذّنوب والمعاصي.

٢) وانسبي النّعمة لربّ العالمين، واشكريه عليها، واسألي أن يجعل هذه النّعمة من البركات، وليس من الاستدراج.

ولا تجعلي للشّيطان عليك سلطة ولا لدقيقة واحدة. فإمّا أنّك تتعلّمين وتحوّلي العلم إلى وسواس، هذا مع الزّمن سيمنعك الشّيطان من أنّك تتعلّمين نتيجة عدم الاتّزان!

سنختم الكلام بهذه المسألة، وننظر إلى الآية (١٠٠) في الآيات:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[1].

هذه الآية فيها إشارة: أن استفيدي من التّاريخ، القريب والبعيد، الّذي أدركته بنفسك، أو الّذي سمعته في الأخبار، أخبار النّاس الّذين سبقونا؛ ولذا فإنّ الإنسان إذا ما انتفع بما يحيطه من أحوال، ولا اهتدى بها؛ فإنّه سيمرّ بنفس التّجربة، ويخرج بنفس النّتيجة!

ولذلك انظري: إلى الآية: ﴿أَوَلَم يَهدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرضَ﴾، يعني ﴿أَوَلَم﴾ يتبيّن للّذين سكنوا الأرض. متى سكنوها؟ ﴿مِنۢ بَعدِ﴾ إهلاك ﴿أَهلِهَآ﴾، من بعدما أُهْلِكَ أهلها السّابقون. أُهْلِكُوا بسبب ماذا؟ بسبب معاصيهم، يعني

(١) الأعراف: ١٠٠.

كأنّك تنظرين: (دول كانت غنيّة وبعد ذلك صارت فقيرة! أناس كان عندهم أموال وبعد ذلك ذهبت أموالهم!)، ما هو السّبب؟ هل هو قدر نزل عليهم؟ نعم، هناك أناس ينزل عليهم قدر مع إيمانهم، لكن الغالب أن تكون بسبب المعاصي، يعني تكون أرضًا زراعيّة وفيها، وفيها، لكن الحرب شتّتتها! لكن ليس هناك بركات أبدًا! كانوا في زمن ينتجون وينتجون والآن لا يجدون ما يأكلون! فهذا كلّه بسبب المعاصي، حين يمر النّاس بمثل هذا احذري أن تسيري مسيرتهم، **واعلمي**:

⇐ أنّ الله يعظك.

⇐ كما يعظك بالكتاب.

⇐ وكما يعظك بالحكمة، **وهي**: سنّة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

⇐ وكما يعظك في نفسك بأحوال فيها.

⇐ يعظك بالخلق حولك.

فكوني على حذر أن تجعلي ما يحصل حولك مجرّد أخبار، وأحوال لا تنتفعين بها، ولا تزدادين بها إيمانًا -نعوذ بالله- من الخذلان!

جزاكنّ الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللّقاء السّادس عشر

١١ جمادى الأول ١٤٤٠

تابع باب اليأس من روح الله والأمن من مكر الله

الحمد الله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله توكلّنا الله، نكمل ما بدأناه حول "**باب ذكر اليأس من روح الله والأمن من مكر الله**"، واتّفقنا أنّ هاتين الكبيرتين متّصلتان ببعض، كون أنّ:

⇐ اليأس من روح الله طرف يُقابل الرّجاء.

⇐ والأمن من مكر الله طرف يُقابل الخوف.

والمطلوب من المؤمن أن يجمع بين الخوف والرّجاء.

سنعيد مرّة أخرى الكلام حول اليأس، والكلام حول الأمن بشيء من التّوسع، نبدأ أوّلًا بالكلام عن الأمن من مكر الله الّذي فصّلناه المرّة الماضية. ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1]، واتّفقنا ما معنى مكر الله.

اليوم نزيد الأمر بيانًا بفهم موطن في كتاب الله -عزّ وجلّ- بيَّن فيه -سبحانه وتعالى- كيف أنّ الخلق حين يمكّنهم -هذا كأنّه بيان: ما هو الأمن من مكر الله- حين يمكّنهم -سبحانه وتعالى- من نعمته، يتصرّفون مع هذه النِّعَمة

---

(١) الأعراف: ٩٩.

بصورة كأنّها ملك لهم لا يمكن أن تتزحزح أو تتغيّر، لا يخافون أن يعاملهم الله -عزّ وجلّ- بغير ما يحبّون في هذه النِّعَمة.

فنتدارس سويّا الآيات في **سورة القلم** وهذه القصّة مشهورة جدًّا في الكلام عن أصحاب البستان.

التّعليق على دليل موطن سورة القلم (١٧)

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[١].

هذه الآيات فيها نموذج للأمن من مكر الله، أين وجه الأمن من مكر الله؟ نبدأ من أوّل القصّة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾، الكلام عن أهل مكّة، ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، ماذا فعل أصحاب الجنّة؟ أصحاب الجنّة هؤلاء فتية ورثوا من والدهم هذا البستان، وهذا البستان كان والدهم يعطي حقّه، يعني: يُعطي الفقراء منه وقت الحصاد، فهم أقسموا أن يقطّعوا ثمار حديقتهم

---

(١) القلم: ١٧_٣٣.

مبكّرين. ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾، بمعنى: لا يتركون منها شيئًا؛ فهذه عزيمتهم في اليوم السّابق، في ليلة هذا الحدث. الآن هذه العزيمة فيها من أمن مكر الله ما فيها. لأنّهم تصوّروا أنّ هذا البستان ملك لهم، وتصوّروا أنّ هذا البستان يتصرّفون فيه كما يشاؤون، ما ظنّوا أنّه نعمة الله، والله له حقّ -سبحانه وتعالى- بل الملك ملك الله، إلّا أنّ الله اختبر النّاس: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، وهذه العطيّة بنفسها تُعتبر اختبارًا وابتلاء.

الآن هذا الوقت، هو وقت الأمن من مكر الله، هذا الوقت الّذي باتوه في ليلتهم، وهم قد أجمعوا أمرهم وشأنهم أن يصبحوا فيأتون يقطّعون ثمار الحديقة كلّها، ولا يعطون أحدًا أيّ شيء، ولا يستثنون أحدًا بحقّ؛ هذه هي ساعة الأمن من مكر الله، باتوا على هذا الأمن، أصبحوا ما حالهم! بين بَيَاتِهِمْ وبين صباحهم قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ﴾، الطّائف مِنْ مَنْ؟ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾. الرّبّ الّذي يُدبّر الأمور. ﴿وَهُمْ﴾؟ يعني: هذه حالتهم ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾:

⇐ حالتهم: أنّهم نائمون.

⇐ وحال البستان: أنّه طاف عليه طائف.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ﴾، ماذا فعل به؟ الطّائف على الأظهر أنّه نار جاءت للبستان نارًا أحرقته ليلًا، فأصبح محترقًا أسودًا كاللّيل المُظلم: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾. الّذي انصرم، ليس هناك أيّ أثر للبستان! فهذه حال البستان.

نرجع لحالهم هم الآمنين الآن من مكر الله: ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ﴾، نادى بعضهم بعضًا في الصّباح على أيّ نيّة؟ على النّيّة السّابقة أنّهم يذهبون مبكّرين إلى بستانهم من أجل أن يفعلوا ما اتّفقوا عليه.

ولذلك يأمر بعضهم بعضًا ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾، يعني: في الصّباح المبكّر قبل أن ينتبه لكم النّاس فيجتمعون عليكم ويطلبون منكم الأموال، ويطلبون منكم حقّ الله. ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾، إن كنتم مصرّين على فعلكم عازمين.

انطلقوا وحالهم ﴿يَتَخَافَتُونَ﴾! انظرن الآن: كيف أنّهم يتسَارُّونَ! يراعون الخلق، آمنين مكر الرّبّ، لكن يحملون هَمَّ أنّ النّاس لا تسمعهم ولا تراهم، آمنين مكر الرّبّ وقد نسوه!

يتسَارُّونَ لأجل أن لا يمكّنون أحدًا من المساكين يدخل على حديقتهم، ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾.

﴿وَغَدَوْاْ﴾، وصلوا في وقتهم المناسب في الغدوّ، ساروا في أوّل النّهار إلى حديقتهم، وهذا قصدهم السّيّئ الّذي هو منع المساكين من ثمار الحديقة. ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾، يعني: هم في غاية القدرة على تنفيذ زعمهم، غاية القدرة البدنيّة، وغاية الأمن من مكر الله!

وصلوا الآن إلى مكانهم الّذي لا يخطئونه، تصوّري: هذه حديقة والدهم، فهؤلاء منذ أن فتّحوا أعينهم وهذا هو طريقهم؛ أكيد أنّهم لا يخطئونه!

فلمّا رأوا حديقتهم محترقة أنكروها أوّلًا: ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾، يعني: (لا! هذه ليست حديقتنا! هذا ليس مكاننا!)، كأنّهم أخطئوا الطّريق، فحين تبيّن لهم أنّ هذا هو طريقه، قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، بمعنى: أنّه تبيّن لهم أنّ الله مكر بهم. ما سبب المكر؟ أمنهم! ما خافوا من ربّ العالمين، كان كلّ الّذي يحملون همّه أن يدخل عليهم مسكين، وتسارّوا من أجل أن لا يُكْتَشَفَ حالهم، لكن ما راعوا ربّ العالمين!

وإنّ أصعب ما في هذا المعنى وأكثره ثقلًا على النّفس، أنّهم حين عزموا العزيمة الكاملة، قبل أن يفعلوا، وقع عليهم أثر مكرهم، تصوّري: حين يعزم الإنسان العزيمة التّامّة على منكر، على باطل، ويكون كلّ الّذي يحمل همّه النّاس! يقع عليه أثر عزيمته حتّى لو لم يفعله؛ لأنّهم ما مُكِّنُوا أن يفعلوا: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾، لم يفعلوا بعد، لكنّهم تعاهدوا وعزموا فأصبحوا في منزلة الفاعل! فمعنى هذا: أنّه لابدّ أن ننتبه لخوفنا من ربّ العالمين، خصوصًا حين يعقد الإنسان العزم على فعل المنكر.

هل هذا مثل خواطر المنكر؟ يعني: الشّيطان ما يتركك! وإنّما يأتي لك بخواطر المنكر، يأتي بها لكلّ النّاس مهما كان حالهم، حتّى أنّ الصّحابة الكرام أتوا للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وقالوا: «إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ»[1]، هل أنّ ما يمرّ على الخاطر مثلما عقد عليه الإنسان العزم! الجواب: لا، الّذي يمرّ على الخاطر وتدفعينه، وتدفعينه، فإنّك تأخذين أجرًا على دفعه، لكن الّذي يستقرّ ويستقرّ، يعني: الّذي يمرّ

(١) أخرجه مسلم (١٣٢).

وتدفعينه ليس مثل الّذي يستقرّ وتعالجينه، وتعالجينه، وتوسّعينه وتفكّرين فيه، وتجمعين له أسبابا، وتفكّرين في تفاصيله.

إذًا: خواطر السّوء تمرّ على كلّ أحد، لكنّ المؤمن يدافعها، والفاسق يوسّعها ويوسّعها ويتفاعل معها ويتعايش معها، ثمّ يصل إلى حدّ أنّه يجزم آمنا من مكر الله! ويغرّ النّاس أنّ الله -عزّ وجلّ- يرخي عليهم السّتر.

المهمّ: هذه القصّة أبدًا لا تذهب عن بالكنّ وقتما تردن فهم: كيف أنّ الله يمكر بالماكرين؟ هيّا صفي أصحاب الجنّة وهم ماكرون؟ صفيهم هل أصحاب البستان مكروا أم لم يمكروا؟ مكروا. اتّفقوا على منع المساكين حقّهم، ودبّروا لذلك تدبيرًا، دبّروا لهذا الشّأن تدبيرًا. فهذا التّدبير الّذي دبّروه لهذا الشّأن قبل أن يقع كيف عاملهم ربّ العالمين! ربّ العالمين أوقع عليهم تدبيره سبحانه وتعالى، فقبل أن يمكروا هم بالمساكين مكر الله بهم.

من أجل ذلك انظري: آخر القصّة: أنّ هؤلاء تابوا، وتذاكروا؛ ففي آخر القصّة: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾؛ يتوب الله على من تاب، مهما كان حال الإنسان، دخل في الشّرك، دخل في الكفر، دخل في الأمن من مكر الله، دخل في أيّ شيء؛ ما دام حيًّا يُرزق فإنّ باب التّوبة مفتوح.

لكن ستأتي آخر السّورة تتكلّم عن المصرّين الآن، دعنا نرى: الآية (٤٤)، والآية (٤٥):

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤)
وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[١].

معنى ذلك: أنّ قصّة أصحاب البستان كالنّموذج، الّذي تفهمين فيه أنّ الله يمكر بالماكرين، ولتعلمي أنّ الله يستدرج المكذّبين من حيث لا يعلمون، وأنّ كيده -سبحانه وتعالى- ﴿مَتِينٌ﴾، فلا تأمني مكر الله! وكلّ مرّة يفوت عليكم معنى مكر الله؛ راجعوا هذه القصّة سيتبيّن لكم تمامًا. هم ماذا فعلوا؟ اجتمعوا وعقدوا العزم، ليس خاطرة في قلوبهم؛ وإنّما عقدوا العزم على منع المساكين حقّهم، فكان مكرهم الآن بهؤلاء المساكين، آمنين مكر الله، ما قالوا: (هذا ملك الله، وهو -سبحانه وتعالى- قادر على أن يأخذه منّا)، قالوا: (هذا ملكنا ونحن لا نريد أن نُعطي الفقراء)! فأمنوا مكر الله لأنّهم نسوا أنّ الملك لله! نسوا هذه الحقيقة الّتي هي أنّ الملك لله، وأنّه يدبّر الخلق كما شاء، فمتى عزمت على الباطل دبّر لك شؤونا أوقعتك في شرّ أعمالك، جعل تدبيرك هو التّدمير عليك!

ومن أجل أن تزدادوا ثقةً وبيانًا لهذا الأمر، تذكّروا: أنّ سورة القلم بعد سورة الملك؛ ففي سورة الملك الله -عزّ وجلّ- قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[٢]، بعد ذلك سمعت مباشرةً: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، فمعنى ذلك: أنّ الحياة كلّها عبارة عن ابتلاءات؛ فلا تمكري وأنت تشعرين أنّك آمنة من مكر الله.

---

(١) القلم: ٤٤_٤٥.
(٢) الملك: ١_٢.

وهذا في كلّ شأن، يعني: هذه القصّة الّتي وردت في سورة القلم، وردت على مساكين وقد منعوا أموالهم، لكن في كلّ مرّة أنت تشعرين في نفسك، أنّك تدخلين في ذنب عظيم، وآمنة من عقوبة الله؛ إذًا: هذا هو الأمن من مكر الله. يقابله أنّ الله يستدرج العبد ويُبقيه شاعرًا بالأمن حتّى يوقعه في أسوأ حال!

بهذه القصّة بالإضافة إلى آيات الأعراف، يكون الأمر واضحًا في أذهاننا؛ ومن ثمّ فإنّ الأمن من مكر الله يُعْتَبر كبيرة من كبائر الذّنوب.

اليأس من روح الله

سيزيد الأمر وضوحًا لو قابلناه بالجهة الأخرى، وهي: اليأس من روح الله؛ فنفس القصّة الآن ستحمل المعنى المقابل، يعني: هؤلاء في لحظة أن وسوس لهم الشّيطان بمنع حقّ المساكين، واستسلموا لذلك؛ كانوا كحال الّذي أمن أن يمكر الله به، فمكر الله بهم وطاف عليهم طائف على جنّتهم، ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾، لكن سنجد أنّ عندهم ميزة: رغم أنّهم أمنوا مكر الله لكن -الحمد الله- ما وقعوا في الشّأن الثّاني، وهو اليأس من روح الله، سنرجع مرّة أخرى إلى هذه النّقطة ونناقشها من القصّة. سنبدأ من عند: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾، الآن سنأخذ هذه الآيات نقرأها على أساس أنّ هؤلاء لم ييأسوا من روح الله:

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾.

هيّا نرى معالم كونهم لم ييأسوا من روح الله:

أوّل الأمر: أنّ هؤلاء الإخوة هناك أوسطهم؛ وأوسطهم هنا، يعني: -والله أعلم- أنّه أحسنهم وأرجحهم عقلًا، يعني: ليس أوسطهم سنًّا؛ إنّما أرجحهم عقلًا. هذا ماذا قال؟ لمّا كانوا مجتمعين على السّيّئ من الشّأن ذكّرهم بالله، لكن ما تذكّروا!

لماذا سَايَرْتَهُمْ! فهذه السّلطة! حين يكون الأَكْثَرِيَّةُ هم الّذين فعلوا، فيصير الأضعف يُسَايِرُهُمْ.

فهو قد سَايَرَهُمْ، فالآن ذكّرهم بقوله لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، بمعنى: تذكرون الله، وتتوبون إليه ممّا عزمتم عليه، هو قال لهم من هناك: (اذكروا ربّنا، لو ذكرتموه لا يُمكن أن تأمنوا من مكره، والآن اذكروه ذكر من يتوب إليه).

فهذا أوّل الأمر: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، ماذا فعلوا هم! ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ لأنّ التّسبيح هنا تضمّن:

- ⇐ النّدامة.
- ⇐ والاعتراف أنّهم أخطؤوا.
- ⇐ والاعتراف أنّ ربّنا مالك الملك.
- ⇐ والاعتراف بأنّهم مهما مكروا فالملك لله يدبّره كيفما شاء.

اعترفوا الآن: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، تصوّري: حال اليائس الآن؛ فهذا ليس حال يائس، لكن حال اليائس كيف يكون؟ لو كان في مثل هذا الموقف لكان قال: (ربّنا لن يقبل منّي! أنا ارتكبت جرمًا عظيمًا وهذا الجرم ربّنا عاقبني عليه، ومعناه أنّه لن يقبل منّي)! وهنا يصير الشّيطان تمكّن منه في الطّرفين:

- في طرف الأمن من مكر الله.
- فإذا وقع عليه ما وقع؛ فإنّ شدّة الخوف أوصلته إلى اليأس من روح الله.

حالهم: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، وإنّ اعتراف الإنسان بأنّه ظالم هذا أوّل التّوبة، وأحسن التّوبة؛ ولذلك صاحب الحوت ماذا قال؟ ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(١)، فهم قالوا ما شابه قول صاحب الحوت: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ إذًا: الاعتراف هذا، والتّسبيح؛ إنّما هو تعظيم لربّ العالمين، التّعظيم هذا ما يكون إلّا من عبد مؤمن، وقلبه معلّق بالله، وليس يائسًا من روح الله.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾، وهذا شيء طبيعيّ أنّهم ﴿يَتَلَاوَمُونَ﴾، وشيء طبيعي أن يروا أنّهم أخطأوا في حقّ الله، ويلوم بعضهم بعضًا على إغرائهم في الوقوع في الذّنب.

دعنا نرى: مع ربّنا ماذا قالوا؟ ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾، **إذًا**: هم يعيدون الخطأ على أنفسهم، ومع ذلك طامعين في ربّ العالمين. ماذا قالوا؟ ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾؛ **إذًا**: الطّمع في الله -عزّ وجلّ- موجود، ويرون

---

(١) الأنبياء: ٨٧.

أنّه ببركة التّوبة والاعتراف بالخطيئة، الله -عزّ وجلّ- قادر على تبدليهم من هذه الجنّة إلى أحسن منها. ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾، يعني:

⇐ راجون عفوه سبحانه وتعالى.

⇐ راجون قبول التّوبة.

⇐ راجون أن يبدلّهم بالنّقص كمالًا.

إذًا: هذه حالة تخالف حال اليائس من روح الله.

فإذًا: وإن كانت القصّة فيها وصف الأمن من مكر الله، لكن فيها أيضًا وصف عدم اليأس من روح الله، حتّى لو ارتكب الإنسان ذنبًا عظيمًا، ووقعت عليه عقوبة الذّنب؛ يبقى طامعًا في رحمة الله.

الآن الشّيطان عرفنا دوره في الأمن من مكر الله في هذه الكبيرة في اللّقاء الماضي، ونعيد اليوم كلامًا مجملًا:

ما هو دور الشّيطان في الأمن من مكر الله؟

- يُنسيك ذكر الله!
- يُنسيك قدرة الله!
- يُنسيك معاني الاستدراج!
- يجعلك أنت المهيمن على الأشياء!

تصوّروا حالتهم: كيف كانوا يظنّون في أنفسهم؟ أنّهم يملكون هذه، ليس هناك أحد يستطيع أن يُشاركهم فيها، لا أحد يستطيع أن يتدّخل فيها، وعندهم إحساس أنّ الملك لهم، ولأجل ذلك لا تنسين بأنّ **سورة القلم** بعد **سورة الملك**، فالشّيطان يوحي لك هذا ويُضلّلك! هذا فعله في الأمن من مكر الله.

فعله الآن في اليأس من روح الله: **دعنا:** نعدّ ثلاثة أمور في فعل الشّيطان في مسألة اليأس من روح الله، وهي من أخطر ما يكون على المؤمن، وقد تبيّن لنا من الأسبوع الماضي، أنّ الأمن من مكر الله واليأس من روح الله كلاهما يصل بالإنسان لنفس النّقطة من ترك العمل لله! هيّا دعنا نعدّ ثلاثة من أفعال الشّيطان مع الإنسان لأجل أن يصل به إلى اليأس من روح الله:

الأمر الأوّل من فعل الشّيطان: تعظيم الذّنب على رحمة الله، يُعظّم الذّنب، ويجعله -والعياذ بالله- أكبر من رحمة الله! وأنتنّ تعلمن أنّ رحمة الله وسعت كلّ شيء، وعمَّت كلّ حيّ، فالشّيطان أوّل أفعاله أنّه يجعلك تظنّين أنّ ذنبك أكبر من رحمة الله!

ماذا إن كان الذّنب عظيمًا؟ الآن ذنب هؤلاء أليس عظيمًا! عظيم. بدليل أنّه أتاهم الطّائف وهم نائمون ليُريهم عِظَمَ ذنبهم، لكن مع ذلك تابوا في نهاية القصّة، وربّنا نقل لنا توبتهم؛ ومجرّد نقل توبتهم هذا دليل على أنّهم سلكوا سلوكًا صحيحًا.

إذًا أوّل شيء يفعله الشّيطان: أنّه يُعظّم الذّنب ويضيّق الرّحمة! وهذا لابدّ أن تعرفي أنّه من فعل الشّيطان؛ لأنّ ربّنا يقول في وصف رحمته: ﴿الرَّحْمَٰنُ

عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[1]، فهذه كما قال أهل العلم: أوسع الصّفات مع أوسع المخلوقات، فإذَا كان عرشه -سبحانه وتعالى- وسع الملك كلّه، فرحمته وسعت كلّ شيء. إذًا: هذا الفعل الأوّل، وتنظرين إلى العالم من ثقب إبرة! وتنظرين لعلاقتك برحمة الله وعلاقتك بالله في مضيق شديد كأنّه طريق لا عودة منه! وهذا أبدًا لا يكون مادامت أنفاسك تتردّ في بدنك.

الأمر الثّاني من وسواس الشّيطان للإنسان في الإيمان: أنّه يحوله من التّعلّق بالله وطلب رحمته للتّعلّق بغيره، يعني: أوّل الأمر ماذا يفعل في اليأس! يضيّق عليه رحمة الله ويكبّر ذنبه على رحمة الله. الأمر الثّاني: بدلًا من أن يطلب طريقًا يوصله إلى الله، يطلب طريقًا يُنسيه ذكر الله؛ لأنّه في البداية يجعله قاطعًا الأمل، أنّه لا يوجد أمل بينه وبين الله، فإذَا ما شعر الإنسان بأنّه لا يوجد أمل بينه وبين الله ورحمة الله فماذا يفعل؟ يبحث عن أحد غير الله، فتجد الإنسان يخاف أن يتذكّر طاعة الله، يخاف أن يتذكّر الإيمان، يخاف أن يتذكر أسبابه، يخاف أن يتذكر حساب الله، فيشعر بالألم والخوف فماذا يفعل؟ يهرب من باب رحمة الله، فيتلهّى، يطلب أيّ شيء يفعله! وهذا كلامًا لا يليق لكن نقوله لأنّه يجري على ألسنة بعض اليائسين من روح الله، يقول: (أنا داخل النّار داخلها دعوني أفعل ما أريد)! يعني: أصبحت ممارسته للمعاصي من جهة اليأس، وهكذا سنعود مرّة ثانية نقول: الاثنان يلتقيان في نقطة واحدة، يعني: الأمن من مكر الله يصل بالنّاس لارتكاب المعاصي، واليأس من روح الله أيضًا يصل بهم لنفس النّتيجة، وهذا

---

(١) طه: ٥.

من وساوس الشّيطان، فالأوّل تضييق رحمة الله! تعظيم الذّنب على رحمة الله! يعني: الّذي قتل مائة نفس كان له منفذ في رحمة الله، خالد بن الوليد الّذي في تلك الغزوة قد تسبّب في قتل سبعين من كبار الصّحابة، قُتل حمزة رضي الله عنه، ومع ذلك أتى تائبًا مسلمًا فأصبح "سيف الله المسلول".

فالشّيطان هو من ييئّس الإنسان من روح الله ورحمة الله، ويجعل ذنبه أكبر من رحمة الله. وعُدّي في التّاريخ ما تُريدين، وعُدّي فيمن تعرفين كيف أنّ رحمة الله وسعتهم، وستجدين أنّ أشخاصًا ارتكبوا أعظم الذّنوب ثمّ يعودون فيصبحون أولياء لله؛ ورحمة الله لا يستطيع أحد أن يُحجِّرها. فأصبح هذا السّبب الأوّل الآن، والثّاني من وساوس الشّيطان.

نحن عندنا السّبب الرّئيسي لليأس من روح الله: الشّيطان؛ وقلنا أيضًا التّربية، وسنُشير للتّربية الآن، لكن الشّيطان أهمّ سبب:

الأمر الأوّل: كما اتّفقنا يضيّق رحمة الله ويكبّر عليها الذّنب.

الأمر الثّاني: يجعله يهرب من الله لغير الله.

الأمر الثّالث: الشّيطان يحوّل حياة الإنسان إلى جحيم من جهة تذكيره الدّائم أنّه مطرود من رحمة الله، يعني: يذكر هذا المعنى أكثر من أن يذكر الله، يذكر هذا المعنى أكثر ممّا يجب ذكره، فطوال الوقت يقول له: (أنت مطرود من رحمة الله! أنت عند الله لست بشيء...) إلى أن يبغض أن يتذكّر الله، إلى أن يصل أنّه لا يُريد أن يعرف الاستقامة ولا الدّين! إلى أن يصل إلى مراحل ممكن يفكّر في أن يتخلّص من نفسه، وهذا كلّه في دائرة اليأس من روح الله.

هذه الدّائرة كلّها دائرة في نقطة واحدة الّتي هي: الذّنب، هذه دائرة اليأس الّذي نتكلّم عنه، دائرة حول الذّنب، لكن هناك يأس من نوع آخر أيضًا من روح الله. فهذا الأوّل واضح. وهذا الأمر الأوّل الّذي يأتي يوسوس لك فيه الشّيطان، مناسب للقصّة في سورة القلم، أنّ هذا النّموذج كيف أنّه لم ييأس من روح الله، ولا قال: (ذنبي أكبر من رحمة الله)، ولا الشّيطان ضيّق عليه مجاريه، ولا ذكَّره بالذّنب حتّى أفسد عليه حياته؛ لا! وإنّما استغفروا، وتابوا، ووصفوا أنفسهم أنّهم ﴿طَاغِينَ﴾، وأنّهم ﴿ظَالِمِينَ﴾، وطمعوا كذلك في رحمة الله؛ الطّمع الأخير الّذي صار في رحمة الله، هذا سيفتح لنا نوعًا آخر من مناقشة اليأس، يعني: هناك أناس ييأسون من رحمة الله، بمعنى: من الجنّة، من رضا الله، من لقاء الله وهو راضٍ عنهم! وطوال الوقت إذا تذكَّروا الموت لا يتذكَّرون إلّا ملائكة العذاب، لا يتذكّرون ملائكة الرّحمة! عندهم اتّجاه واحد في التّفكير، وطبعًا التّربية لها عظيم الأثر في ذلك.

حين تقولين لهم: (حتّى في القبر، هناك أناس منعّمون نعيمًا عظيمًا، يعيشون في نعيم)، فتذكّر هذا، وارغب فيه، لماذا تيأس من روح الله! «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ»، فاجعل لقاء الله محبوبًا عندك. وعائشة رضي الله عنها، قالت: «يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَ: لَيْسَ كَذَلِكِ»[(١)]، يعني: ليس المطلوب منك أن تحبّي الموت بعينه لكن تحبّين لقاء الله! وهذا **مثل** المرأة حين تلد، فهي لا تحبّ الولادة نفسها لكن تحبّ ما وراءها من وجود الطفل الصّحيح، فأنت الآن حين تفكّرين في الموت فكّري فيه

(١) أخرجه مسلم (٤٩٧٤).

ليس بعقل اليائس؛ وإنّما فكّري بعقل الرّاجي، بمعنى: حين تتذكّرين الموت وملائكته، تطلبين من ربّ العالمين أن تكون ملائكة الرّحمة، حين تتذكّرين الموت وما يكون تطلبين منه حسن الخاتمة، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[١]، فنحن متيقّنون من هذا.

فالمهمّ: ذكرى الدّار الآخرة عند الرّاجي ليست مثل ذكرى الدّار الآخرة عند اليائس؛ فإنّ اليائس ما أمامه من الدّار الآخرة إلّا ملائكة العذاب، العذاب في القبر، يوم القيامة العذاب والنّار، وهذه كلّها حقائق لابدّ أن تبقى في الذّهن، لأجل أن لا ندخل في الأمن من مكر الله، لكن ليست هي الّتي تبقى دون الطّرف الثّاني، كِلاَ الطّرفان ذميم، يعني: اذكري ملائكة الرّحمة، واطلبي من الله أن تكوني ممّن تقبض روحها ملائكة الرّحمة، واذكري ملائكة العذاب، واستعيذي بالله منها، اذكري النّعيم في القبر، واذكري العذاب في القبر، واطلبي من الله النّعيم واستعيذي من العذاب، لكن لا تتذكري العذاب كلّما أتت سيرة القبر! وأين النّعيم؟ النّعيم لأجل أن يحضّك على العمل.

الشّاهد الآن: أنّ دائرة اليأس من روح الله، دائرة حول ما يكون عند الله، لكن هناك دائرة أخرى تمامًا يكون فيها يأس أيضًا، ولابدّ أن تعرفي أنّ هذا اليأس أيضًا يكون من الكبائر، وهو اليأس من النّجاح والفلاح والوصول إلى الغايات في الدّنيا، يعني: اليأس من روح الله، بمعنى: اليأس من أن يغفر الله لنا -والعياذ بالله- أو ييأس الإنسان من أن يلقى الله وهو غير راضٍ، فهذا من

---

(١) آل عمران: ٨_٩.

الشّيطان مؤكّد! واتّفقنا: ماذا يفعل بنا! يأتي إلى ذنوبنا فيُعظّمها، ويأتي إلى رحمة الله فيُضيّقها، إلى آخره.

لكن هناك نوع ثانٍ من اليأس يصل بالإنسان أيضًا إلى اليأس من روح الله، وهو: اليأس من التّوفيق في شؤون الدّنيا! ويأتي هذا يقيس رحمة الله بأن يعطيه ربّنا وفق هواه.

وهذه المسألة مركّبة من عدّة أمور، ونحن نقولها من كلّ جهة، وربّنا يوفّقنا أن نصل إلى بيانها. هذا النّوع الثّاني من اليأس ليس مثل الأوّل؛ فالأوّل يكون اليأس فيه من أن يغفر الله لنا! اليأس من أن نكون عند الله ذوو منزلة! فحتّى لا يقول: (ارزقني الفردوس الأعلى)! لا يقول: (ارزقني الجنّة)! وإنّما يقول: (أين أنا وأين الجنّة! أين أنا وأين الفردوس الأعلى!)! كلّ هذا من آثار اليأس، لكن هذا نوع من اليأس.

دعنا نذهب للنّوع الثّاني من اليأس: النّوع الثّاني من اليأس يتّصل بالدّنيا، فهو يشعر بأنّه يائس من توفيق الله، وهذا تتداخل فيه عدّة أمور، منها: ضعف الإيمان بحكمة الله، يعني: ما يصل الإنسان لليأس من روح الله من هذا النّوع إلّا وهو ضعيف في الإيمان بحكمة الله، ضعيف في الإيمان بالقضاء والقدر، ضعيف في الرّضا بما قسّم الله.

على الأقلّ دعنا نناقش هذه الثّلاثة اليوم: الّذي ييأس من التّوفيق في الدّنيا، والوصول إلى غاياته، لدرجة أنّه يقول لك: (أنا كلّما أذهب إلى طريق أجده مسدودًا!) ويصل إلى درجة أنّه لا يُحرّك ساكنًا، يقول لك: (أنا متأكّد أنّني سأذهب وسيقولون لي لا! وسأختبر ولن أنجح!) أنتنّ أكيد متخيّلات هذه

النّفسيّة، وهذه النّفسيّة في النّهاية كثيرًا من الأحيان حين تصل إلى حدّها الأعلى إلى الاكتئاب الشّديد -الله يحفظنا- ويكون هناك ضعف من الإيمان، وضعف من الإيمان بالحكمة؛ تقتل نفسها! تشعر: (بأنّه ليس هناك أمل! أنا أعيش على هامش الحياة) وإلى آخر هذا الكلام الّذي ليس له معنى!

دعنا نناقش هذا اليأس: كيف يأتي؟ من الشّيطان.

أوّل مشكلة: عدم الإيمان بحكمة الله. يعني: الإنسان حين يكون مؤمنًا بحكمة الله؛ يرى في كلّ ضيق منفذًا للفرج.

ويرى أنّ الأمور تبدأ ضيّقة وتنتهي بالاتّساع. وحين يقرأ سورة الضّحى، ويسمع قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾[1]:

⇐ يفهم أنّ الآخرة الّتي عند الله خيرٌ له من الأولى الّتي في الدّنيا.

⇐ ويفهم أيضًا أنّ آخر كلّ أمر خيرٌ له من أوّله.

فسنّة الله في الحياة أن يبدأ كلّ شأن ضيّقًا وينتهي بالاتّساع، لكن لمن؟ للصّابرين، لمن يؤمن بحكمة الله، لمن يطمع في رضا الله عليه، لمن يفكّر أنّ ربّنا ينظر لقلبه، ويراه راضيًا عنه أو غير راضٍ عنه؛ فتبدأ الأمر ضيّقة ليختبر الله رضاك، ثمّ تتّسع وتتّسع. وأنت لو راجعتِ في حياتك سترين كم من أمرٍ بدأ ضيّقًا وانتهى بالاتّساع، فلو وضعتها كالذّاكرة أمام عينيك وكلّ مرّة قلت لنفسك: (وهذا بدأ ضيّقًا واتّسع،

---

(١) الضحى: ٤.

وهذا بدأ ضيّقًا واتّسع)، لو وضعتها كالذّاكرة؛ فإنّه كلّما يُهاجمك الشّيطان: (أنّه أنا كلّما أدخل مشروعًا لا أنجح! وأذهب للدّراسة ولا أنجح! وأذهب للتّعلّم ولا أفلح! أذهب لآخذ شهادة ولا يعطوني)! قولي لنفسك: (كم كان هناك من شيء ضيّق ووسّعه الله).

هناك أمور -أصلًا- ليس من مصلحتك أن تكون واسعة؛ فحكمة الله أن لا تدخلي هذا الباب، وغدًا حين يتقدّم بك العمر سترين كم لله من حكمة أنّ هذا الباب لم يُفتح! وأحيانًا لا يحتاج أن يتقدّم بك العمر، فمن الممكن أن تكوني قد تقدّم بك العمر ولازلتِ تفكّرين بنفس الطّريقة، لكن تُرزقين علمًا بحكمة الله، وتُرزقين بابًا يُقرّبك من الإيمان، فتعلمين أنّه كم كان من حكمة الله أنّه لم يُفتح لك هذا الباب، أنّه لم يحصل لك هذا الأمر؛ وهذا الأمر يُقال حتّى على أشدّ الأمور خطورةً، فحتّى على الحروب يُقال هذا الأمر، يعني: الحروب مع شدّتها وآلامها وما فيها، لكن الله -عزّ وجلّ- يجعل فيها ما فيها من المصالح، علمها من علمها وجهلها من جهلها.

فكثير من النّاس يحصل لهم أذى شديد بسبب الحروب، لكنّهم حين يخرجون من ديارهم، وربّما يُقدّر لهم أن يتّصلوا ببلاد فيها علم، أو بلاد فيها من معرفة الله، أو بلاد فيها ما فيها، فيرفع الله شأنهم في الدّنيا وفي الآخرة، فهذا شأن لله.

المهمّ: أنّ أوّل أمر نتّفق عليه: أنّ من عرف حكمة الله اتّسعت أموره مهما ضاقت؛ وعظم أمله ورجاؤه، يعني: أنت لا تيأسي! الأمل بالله، وإذا أُغلقت

أبواب تُفتح مكانها أبواب، وإذا لم تُفتح الأبواب هذا رزقنا وقدرنا، فلا اليأس يغيّره، ولا الأمل يبدّله، لكن الأمل يُبقي الإنسان داعيًا، راجيًا، في حالة نفسيّة مرتاحة، افترضي أنّ هذا الأمر ليس من نصيبك، ليس من قدرك، لكن بقي الأمل يسبّب لك الدّعاء، أليس أفضل من أن يأتي اليأس ويسبّب لك الاكتئاب! أليس أحسن؟ بلى، أحسن أكيدا! لأنّ بقاء الدّعاء بقاء الصّلة، فممكن بعد طوال الدّعاء تنطفئ في القلب -أصلًا- حرارة الرّغبة، فيكون من آثار الدّعاء أنّه يتبيّن لك أنّه من الأحسن أن ما يكون لك، لكن اليأس ماذا سيفعل بك؟ فقط سيأتي لك بالاكتئاب.

إذًا: نحن نؤمن بحكمة الله، ونؤمن بالقضاء والقدر، فلا تعودي لقول: (أنا هذه السّنة حصل لنا كذا! وحصل لنا كذا! من المآسي) بحيث أنّك تجمّعين على نفسك ما ييئسك من روح الله؛ بل اعلمي أنّ هذا قضاء وقدر ما كان سيُخطئك أبدًا؛ فالّذي أصابك لم يكن ليُخطئك؛ وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فحين تنظرين للأمور بهذه الطّريقة وليس بطريقة اليأس؛ ترجين من الله أن يكون إيمانك سببًا للأجر، لكن اليأس يُفقدك الأجر، تتصبّرين، وتتصبّرين، وتقولين: (هذا قدر الله، هذا قدر الله)، وكلّما هيّجك الشّيطان، قلت لنفسك: (هذا قدر الله)، بحيث أنّه يكون أملك في الأجر عند الله خير ممّا فاتك من الدّنيا، لكن اليأس من روح الله لا تستطيعين معه حتّى أن تقولي: (هذا قدر الله)، يصير النّاس يقولون لك: (أصلًا أنا منحوس! أصلًا أنا ليس لي حظّ! كل الأمور بالواسطة، هؤلاء النّاس أكلوا أموالنا) إلى آخره؛ بحيث أنّه ينسى بأنّ الّذي يقدّر، ويَقْسِم، ويعطي؛ في السّماء.

إذًا هكذا اتّفقنا على أمرين:

١. لابدّ أن نكون مؤمنات بحكمة الله.

٢. وإيمانك بحكمة الله يجعلك تؤمنين أنّ الأمور تبتدئ ضيّقة ثمّ تصبح واسعة، وإذًا ما كانت من نصيبك فهو قَدَرٌ قدّره الله.

فهذان شأنان الآن نُناقشهما في مسألة اليأس. يأتينا الشّأن الثّالث: هذا الشّأن الثّالث فكّرن فيه جيّدًا، وانظري: مشكلة الإنسان حين يتربّى في وسط، أو مع جماعة أصحاب، دائمًا يطمحون إلى الكمال الدّنيوي، وليس في نفوسهم رضا بما رزقهم الله، دائمًا طموحين للأعلى! للأعلى! ينظرون لمن هو أعلى منهم! يعني: يُخالفون الحديث والآية، وقد ورد في النّصّ الصّحيح عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، الأمر بالنّظر لمن هم دوننا في الدّنيا، والله -عزّ وجلّ- في كتابه قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[1]، فهذا لا يقدر أن يأتي لنفسه بالرّضا أبدًا! طوال الوقت الكذّابون يخرجون له، مثلما خرج قارون على قومه في زينته، لكن على الأقلّ قارون كان يمتلك حقيقة مالًا! على الأقلّ كان صادقًا في أنّه صاحب أموال! بينما اليوم يصوّرون وهم أكذب الكذّابين! وهذا مسكين يحسب بأنّهم يعيشون في نعيم! ويحسب أنّ النّعيم هو هذا! وأنّه يكون يملك ويملك! فتجده لا يستطيع أبدًا ولا بصورة أن يرضى! وتقولين له: (قل الحمد الله)، يقول لك: (على ماذا؟) تقولين له: (أنت تعيش أحسن عيشة)، يقول لك: (وهل نحن نعيش! انظري الّذين يعيشون!) بهذه الطّريقة!

---

(١) طه: ١٣١.

طبعًا كلّ هذا الكلام هيّجه الشّيطان عليهم، بسبب الّذي يرونه، والكذب الّذي يُمارس عليهم! طبعًا هذا الكذب أشكال وألوان لا ينتهي! لكن في نهايته تكون نفسيّة هذا العبد بسبب بيئته، بسبب صحبته، بسبب ما يُمارس، فلا تقدر على الرّضا على أيّ شيء! فتصل في لحظة إلى اليأس من كلّ شيء! وتجد نفسها بأنّها لا يمكن أن تصل إلى أيّ شيء لأنّها ترى نفسها وترى النّاس في تصوّرها إلى أين وصلوا! فتشعر بأنّه لا يمكن أن تسير هذا السّير! ولا يمكن أن تصل إلى هذا الحال! فما عليها في تلك السّاعة إلّا مشاعر اليأس الّتي من الممكن بعدها أن تقتل نفسها يأسًا من روح الله! وهذا كلّه له سبب واحد في هذه المسألة، الّتي هي: اليأس من التّوفيق والعطاء.

كلّه متصوّر أنّ هنا السّعادة! متصوّر أنّه لو كثُر ماله، ووُفِّقَ فيما يريد، وكلّما رغب في شيء جاء به، فيتصوّر أنّه هكذا سيصير سعيدًا! ولا يدري أنّ هذا إنّما هو سعادة البدن الّتي هي أسرع ما تكون في الزّوال! وتبقى الرّوح عطشانة باكية! لا يدري ماذا تريد! وما يدري أنّ ذكر الله إن وقع من قلب مؤمن راضٍ بُورك له فيها، وذهب القلق، وذهبت الحسرة، وذهبت المخاوف، لكن طبعًا هذا تقنعين به من؟! فإنّه لا يقتنع بذلك إلا:

- ✓ من ابتدأ بالإيمان.
- ✓ وعرف من هو الرّحمن.
- ✓ وعرف حقيقة الدّنيا.

✓ وعرف أنّ هناك في الجنّة، هناك ﴿إِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[1]، لكن هنا ولا شيء!

لكن دائمًا يشعرونك أنّ هذا كلام الّذي لا يجد! لأنّك لم تجدي فأنت تقولين هكذا! فمالنا في مثل هذا الموقف إلّا أن نبيّن شيئًا في غاية الأهمّيّة، وهو: إن عشت على هذه النّفس بهذه الصّورة لن تلحقي من السّعادة شيئًا! ما يلحق الإنسان بالسّعادة مهما كانت حاله إلّا بالرّضا، يعني: الإنسان مهما وصل، حتّى وهو عنده ما عنده، فحتّى النّاس الّذين يكونون عندهم يتمنّون أن يكون عندهم أكثر! والّذي عنده أكثر يتمنّى أن يكون عنده أكثر! ولو تظنّين بأنّ النّاس يقفون عند حدّ معيّن في أمانيهم تكونين مُخطئة، ليس هناك ولا أحد يبقى في موقفه إلّا من رضي بما قُسِمَ له ذاق السّعادة، فما يذوق السّعادة إلّا من رضي بما قُسِمَ له، فهو يتذوّقه.

وتصوّري: أنّك على طعام الغذاء، ووضعوا هناك طعامًا، وجاء أحد وشوّقك لطعام أحسن منه. جلس النّاس ورضوا بأكلهم وبما هو موجود وبدأوا يأكلون. وأنت لا أكلت معهم ولا جاءك المطلوب! وانتهى النّاس واستمتعوا وأنت تنتظرين، وتنتظرين وفي النّهاية لم يأتك! فلا شبعتِ، ولا تمتّعتِ، وزدتِ قهرًا! فهذا بالضّبط تصوّر الرّضا.

لأنّ الراضي ما شأنه؟ أنّه يستمتع بالّذي أُعطيه، وما حُجب عنه وقتما يأتي يأتي، لكن حين تتركين طعاما جاهزًا وتتأمّلين في طائر غائب، ماذا

---

(١) الإنسان: ٢٠.

ستكون النّتيجة! لا أكلت مع الآكلين! ولا شبعت حتّى! ولا وصلك هذا! فهذه بالضّبط حقيقة الدّنيا!

تصوّري: عندك آخر الأسبوع مناسبة: (ارتدي ممّا عندك في الخزانة يا ابنتي)، (لا! دعنا ننزل فيمكن أن نجد شيئا نشتريه)! فنذهب يوم السّبت، ونذهب يوم الأحد، ونذهب يوم الاثنين، ونذهب يوم الثّلاثاء، ونذهب يوم الأربعاء، وهذا كلّه ونحن لم نجد شيئًا! (اقنعي بما في الخزانة! اقتنعي! عدّلي فيه لأجل أن يصبح مناسبًا لك! افعلي أيّ شيء!)، ولكن لا تقتنع، وتذهب وتأتي! وتذهب وتأتي! وفي النّهاية تلبس الّذي في الخزانة وهي صامتة، وكلّ تلك السّاعات إنّما كانت شقاء!

أليس هذا دائمًا هو الّذي يحصل! بلى، هذا الّذي يحصل دائمًا: (لا أريد هذه الحقيبة! لا أريد هذه)! وتبقى تدور، وتدور حول نفسها وفي النّهاية تأخذ ما هو موجود! لا تأخذ إلّا ما هو موجود!

على كلّ حال، الكلام هذا نقوله لأنفسنا نحن الكبار؛ لأنّنا نحن من نورّث هذه العادات للصّغار. **ونقول أيضًا**: لاحظي الصّغار، إذا فقدوا الرّضا بما قُسم لهم، لابدّ أن يُكرّر عليهم المفهوم حتّى يتّسع ويدخل في نفوسهم، حتّى لا ييأسوا من روح ربّ العالمين، لابدّ أنّهم لا ييأسون، لابدّ أن يعرفوا أنّهم إذا تناولوا ما أعطاهم؛ بارك لهم فيما أعطاهم؛ وزادهم عطاءً، لكن تصوّري: أنّ ربّ العالمين يمدّ لك الرّزق، فتقومين أنت بردّه على ربّ العالمين! ماذا تنتظرين حين تردّيه على ربّ العالمين! ماذا تنتظرين! لا بركة في الموجود، ولا عطيّة من المفقود، فأنت بهذه الطّريقة تعاملت مع ربّ العالمين!

✓الرّضا نعيم وجنّة معجّلة لأهل إيمان، الّذي ناولك الله إيّاه خذيه، والّذي مُنِعْتِهِ انتظريه من رحمة الله، إن أتى -فالحمد الله- وإن لم يأتِ فإنّه يأتي ما هو أحسن منه.

✓وكلّ مرّة نكرّر على أنفسنا: (ليست الدّنيا نهاية العالم!)، فإنّ الدّنيا بداية العالم، بداية الطّريق، الدّنيا مجرّد ممرّ ضيّق جدًّا، سيأتي ما هو أوسع منه، فإن اجتهدت أن يكون قبرك واسعًا، فستكون رائحة الجنّة ممّا تشمّينها في القبر، ويتّسع هذا القبر اتّساع الأفق لصاحبه، ويبات نائمًا مرتاحًا في نعيم ما حصّله أهل الدّنيا كلّها، ثمّ يتّسع أكثر من ذلك: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾، فالنّعيم والملك الكبير ليس هنا!

لابدّ أن يدخل الإيمان بالغيب في قلوبنا، من أجل أن لا نيأس من روح الله، ولأجل أن نعرف أنّ اللّقمة الّتي مدّها الله -عزّ وجلّ- تُبَارَكُ، وتُشْبِعْ، وتَنْفَعْ، لكن لا تطمعي إلّا في رحمته، لا تيأسي أبدًا من رحمة الله؛ والّذي نَقُصَ اليوم، غدًا ربّنا يُكمّله؛ والّذي لم تستطيعيه اليوم غدًا ربّنا يُعطيك إيّاه، إن لم يكن في الدّنيا يكون عنده سبحانه وتعالى.

جزاكنّ الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللّقاء السّابع عشر

١٨ جمادى الأوّل ١٤٤٠

باب ذكر سوء الظّنّ بالله

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على نبيّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، نبدأ في إكمال وإنهاء موضوع كبيرة اليأس من روح الله والأمن من مكر الله، ونبيّن: ما السّبب الّذي يجعل الأمن من مكر الله كبيرة من الكبائر؟ نفس السّؤال سنسأله على الجهة الأخرى: ما الّذي يجعل اليأس من روح الله كبيرة من الكبائر؟ جواب السّؤالين يعود إلى مسألة واحدة، **وهي**: سوء الظّنّ بالله، يعني: لماذا اليأس كبيرة؟ ولماذا الأمن كبيرة؟ **الجواب**: بسبب أنّ الكبيرتين أو الفعلين يعودان في أصلهما إلى سوء الظّنّ بالله؛ ولذا تجدن في الكتاب أنّ الكبيرة التالية هي: سوء الظّنّ بالله.

دعنا نتناقش الآن: كيف أنّ سوء الظّنّ بالله سبب لكون أنّ الكبيرتين السّابقتين كبيرة، يعني: لماذا الّذي ييأس من روح الله يُعتبر ارتكب كبيرة؟ لماذا من أمن من مكر الله يُعتبر ارتكب كبيرة؟ **السّبب**: أنّه ما عرف الله حقّ المعرفة، ومن ثمّ أساء الظّنّ به. **دعنا**: نبدأ في قراءة **"باب ذكر سوء الظّنّ بالله"**.

سنقرأ ما ذكره الشّيخ في كتابه من **"باب ذكر سوء الظّنّ"**، سنناقش سوء الظّنّ ككبيرة، ونناقش سوء الظّنّ كسبب لكون أنّ الأمن من مكر الله كبيرة، والطّرف الثّاني: اليأس من روح الله كبيرة. يعني: سوء الظّنّ بنفسه كبيرة وهو الّذي يُسبّب الأمن واليأس. وبذلك تفهمين ترتيب الشّيخ، لماذا رتّب هذه الكبائر بعضها على بعض.

التّعليق على دليل موطن فصّلت (٢٣)

قال الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب، في كتابه الكبائر:

(**باب ذكر سوء الظن بالله**: وقولِ الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[1]، وقولِ الله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾[2]، وقوله تعالى ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾[3].

رويَ من حديث ابنِ عمرَ -رضي الله عنهما- «أكبرُ الكبائرِ سوءُ الظنِّ بالله» "رواه ابن مردوية".

وعن جابر[4] -رضي الله عنه- قالَ: سَمعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقولُ قبلَ وفاتِهِ بثلاثٍ: «لَا يموتَنَّ أحدكمْ إلّا وهوَ يُحسنُ الظَّنَّ بالله» أخرجاهُ وزاد ابن أَبي الدنيا فإنَّ قومًا أرداهُمْ سوءُ ظنهِمْ بالله فقالَ تَبارَكَ وتعالَى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

---

(١) آل عمران: ١٥٤.

(٢) فصلت: ٢٣.

(٣) الفتح: ٦.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

ولهما عن أبي هُريرة[1] -رضي الله عنه- مَرفُوعًا قالَ الله تعالى: «أنَا عندَ ظنِّ عبدي بي» زادَ أحمدُ[2] وابنُ حبانَ «إن ظنَّ بي خَيرًا فلهُ وإنْ ظنَّ بي شرًا فلهُ».).

نبدأ بسم الله، ونقول الظّنّ أوّلًا، قبل الكلام حول: سوء الظّنّ بالله. الظّنّ ماذا يُقصد به؟ **يُقصد بالظّنّ**: ما يعتقده العبد في قلبه عن ربّه، ويظهر أثر هذا الظّنّ في الأفعال والأقوال.

الآن العباد في علاقتهم مع ربّهم يعتقدون مجموعة عقائد، هذه العقيدة إلّا تسبّب لهم العمل، وكلّما ازدادوا يقينًا بهذه العقيدة، كلّما أوجبت لهم العقيدة أعمالًا؛ فإمّا أن تكون عقيدتهم حقًّا فتكون أعمالهم حقًّا، وإمّا أن تكون عقيدتهم باطلة فتكون أعمالهم باطلة! ولذا الله -عزّ وجلّ- يوم القيامة يحاسب الخلق على ما قام في قلوبهم وما أنتج من أعمال؛ ولذلك قال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾[3]، فهذا الّذي في الصّدر، الّذي هو عقيدتك، الّذي هو ظنّك؛ هو الّذي يجب أن تبذلي الجهد في تحسينه؛ بل إنّ الكتاب نزل، والرّسول أُرسل، والدّنيا قامت لهذا الشّأن: ماذا تعتقد في ربّ العالمين؟

وكما تعلمن أنّ الله -عزّ وجلّ- قد قال في آخر سورة الطّلاق: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، **إذًا**: هذه كلّ الدّنيا صارت:

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٥).

(٢) رواه أحمد في المسند ٢/ ٣٩١.

(٣) العاديات: ٩_١٠.

⇐ خلق السّماوات والأرض.

⇐ إنزال الأمر القدري.

⇐ إنزال الأمر الشّرعي.

لماذا؟ ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[(١)]، فإذا علمتنّ هذا، أحسنتنّ الظّنّ بربّكنّ، فأحسنتنّ العمل؛ وإنّ قومًا لم يحسنوا الظّنّ فلم يحسنوا العمل؛ إذًا الآن: ما معنى الظّنّ بكلمة مختصرة؟ الاعتقاد، الظّنّ بالله، يعني: العقيدة الّتي تعتقدينها في الله.

هذه العقيدة الّتي تعتقدينها في الله، ماذا يُقصد بها؟ **يُقصد بها**: ماذا تنتظرين من ربّ العالمين؟ ماذا تظنّينه فاعلًا -سبحانه وتعالى- في حالك؟ وفي حال المسلمين؟ وفي حال الكافرين؟ ماذا تظنّينه يفعل في أهل الأرض؟ ماذا تظنّينه يفعل يوم القيامة بالخلق؟ فهذا هو ظنّك! بمعنى: ما تعتقديه فيه سبحانه تعالى من جهة كماله، ومن جهة أفعاله؛ على أساس أنّه ما ستعتقدينه ستتصرّفين به.

وهذا أمر لا محيد فيه، بمعنى: أنّه رضيت أم لم ترضي، أدركت أم لم تدركي؛ فإنّ ما تعتقديه هو الّذي يُسبّب لك التّصرّفات. وسنرى في كتاب الله ما يبيّن ظنًّا سيّئًا، وما يبيّن ظنًّا حسنًا، نأتي بمثال على هذا، ومثال على هذا. ونرى ونتأكّد: أنّ معنى الظّنّ: العقيدة، ما تعتقدينه. وما معنى ما تعتقدينه؟

---

(١) الطلاق: ١٢.

يعني: ماذا تعتقدين في ربّ العالمين؟ كيف ترين كماله؟ وكيف ترين أفعاله؟ ماذا تظنّين أنّه فاعل بناء على العلم الّذي عندك؟

دعنا نأخذ آية فصّلت؛ لأنّها واضحة جدًّا، وظاهر فيها كلمة (الظّنّ)، فنأخذ آية فصّلت (٢٣)، من أوّل السّياق من الآية (١٩)، ونرى هؤلاء ماذا ظنّوا بربّهم؟ وماذا فعل بهم ظنّهم؟

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾[1].

ظهر لنا الآن في الآيات كلمة: ﴿ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾، من أوّل السّياق نتناقش، سنبدأ من الآية (١٩): ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يعني: وهم سائرون لربّهم تسوقهم الملائكة، فكلّما حصل لهم تفلّت، تردّ زبانية العذاب أوّلهم على آخرهم؛ بحيث أنّهم يمشون وهم في غاية من الذّلّ! فإذا ما وصلوا إلى النّار حصل لهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾، عائد على النّار. حصل لهم الأمر الّذي لم يكونوا يتوقّعونه: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، يعني: كلّ عضو من هذه الأعضاء

---

(١) فصلت: ١٩_٢٤.

نطقت بالفعل الّذي اقترفه العبد. ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ﴾، بعدما شهدت الجلود وهم على النّار ؛ بحيث أنّهم يدخلون النّار وهم يعلمون أنّ هذا الفعل فعلهم، وأنّ ربّهم لم يظلمهم شيئًا. فهم قالوا لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾؟ لماذا؟ فالجلود لم تجب لِمَ شهدت، إنّما أظهرت قدرة الله: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وتُنبّههم: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

سنرى حالهم الآن الّذي كان فيه سوء ظنّ، فهنا سيظهر الآن، فسواء كانت جلودهم الّتي تقول أو كان هذا الخطاب من ربّ العالمين -والظّاهر أنّه خطاب من ربّ العالمين- فإنّه يُقال لهم: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾، يعني: وقت قيامكم بالذّنب لم تكونوا تتسترون من أعضائكم! لم تكونوا تخفون ذنبكم عن أعضائكم! لماذا! لأنّهم ما كانوا يظنّون أنّ أعضاءهم في يوم من الأيّام تشهد عليهم!

ما هو سبب كونهم أصلًا استهانوا بالمسألة هذه الاستهانة؟ قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، يعني: ظنّوا أنّهم لو تخفّوا، واختفوا عن النّاس، وغابوا عن أعينهم فلا يدركونهم؛ أنّ هذا معناه أنّ الله لا يعلم ما يفعلون!

إذًا: هذه هي العقيدة الّتي اعتقدوها، هذا هو الظّنّ الّذي ظنّوه في ربّ العالمين، ماذا فعل الظّنّ بهم الآن؟ جعلهم يقترفون المعاصي وهم في حالة استهتار! يقترفون المعاصي وهم في حالة وُصفت هنا بأنّهم ظنّوا أنّ الله لا يعلم كثيرًا ممّا يعملون؛ بحيث أنّه يمكن أن يعملوا ما يريدون، وربّ العالمين لا يعلم عن حالهم!

إذًا: هذا الّذي اعتقدوه، هذه العقيدة ماذا فعلت لهم؟ جعلتهم يتصرّفون هذا التّصرّف. ما هو هذا التّصرّف؟ الاستهانة.

دعنا نعود للكبيرتين السّابقتين: اليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، يعني: هم الآن ماذا فعلوا؟ أمنوا من مكر الله بسبب سوء الظّنّ بالله، بسبب العقيدة الباطلة، أساؤوا الظّنّ بالله فظنّوا أنّ الله لا يعلم كثيرًا ممّا يعملون، فكانت النّتيجة أنّهم استهتروا بأفعالهم.

هل هناك مؤمن ممكن أن يصل إلى هذه العقيدة من سوء الظّنّ بالله؟ الأصل أنّ المؤمن لا يصل إلى سوء الظّنّ هذا، الأصل أنّ المؤمن متيقّن أنّ الله يعلم ما يفعل، لكن من قلّة العلم وكثرة الجهل تتراكم المسائل حتّى تختلط النّيّات والعقائد، يعني: الأصل أنّه لا يمكن لمؤمن أن يظنّ أنّ الله لا يعلم ما يفعل، سواء ما يفعل بقلبه، أو ما يفعل ظاهرًا بسلوكه وجوارحه، لكن مع كثرة البعد عن طريق الله، والجهل بالله، ووساوس الشّيطان؛ يضعف الإيمان، وكلّ يوم يزيد عليه يضعف إيمانه حتّى يخرج من دائرة المؤمنين فيدخل في دائرة المنافقين، فيكون في الظّاهر أنّه مسلم، وفي الحقيقة ظنّه في ربّه انقلب عليه! وأصبح سيّء الظّنّ بربّ العالمين!

كيف يظهر سوء الظّنّ من هذا النّموذج؟ يظهر سوء الظّنّ بالأمن من مكر الله، يعني: فؤاده لا ينطق بسوء الظّنّ بالله، يقول: (أنا أسيء الظّنّ بالله!)، لا، لكن عقيدته هي الّتي تنطق، فإذا أمن من مكر الله وأصبح يعمل الأعمال وهو لا يخاف من الله، وكأنّ الله ليس مطّلعًا عليه؛ **إذًا**: هذه هي العقيدة الموجودة في نفسه! معني ذلك: أنّ سوء الظّنّ بالله له درجة من

الدّرجات صاحبها يكون في حال من الغفلة عن أنّ فعله ليس له معنى إلّا سوء الظّنّ بالله! يكون أصلًا في ديار الإسلام، ومع المسلمين، ويعرف كلّ هذا العلم الضّروري، لكن يضعف الإيمان حتّى يصل الفؤاد أنّه لا يتصرّف على أساس أنّه يعرف الله!

الغفلة تأتي النّاس كلّهم! نعم، الغفلة تأتي لكلّ الخلق، لكن ﴿الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، يعني: لو كان مؤمنًا؛ بمجرّد التّذكير سيتنبّه.

إذًا: ما هي علامة الثّاني؟ علامة المنافق الّذي خرج ونقص إيمانه إلى درجة النّفاق: أنّه يُذكّر فلا يتذكّر! ونحن نتكلّم عن مسألة محدّدة، **وهي**: الظّنّ بالله.

إذًا معنى هذا الكلام: أنّه إذا طال الزّمان على الخلق، حتّى لو كانوا في بداية الأمر أصحاب عقيدة صحيحة في ربّ العالمين؛ طول الأمد، طول الزّمن؛ يوصّلهم إلى قسوة القلوب! هذه النّقطة سنشرحها بعدما ننهي تمامًا سورة فصلت.

الآن من فصلت ماذا استفدنا؟ أنّ هؤلاء ظنّوا بالله ظنّ السّوء. ما هو هذا الظّنّ الّذي ظنّوه؟ أنّ الله لا يعلم كثيرًا ممّا يعملون! يعني: يظنّون أنّ الله يعلم، لكن لو استتروا هنا، أو استتروا هنا، أو عملوا بقلبهم، أو حقدوا، أو حسدوا؛ ربّنا لا يعلم عنهم!

نحن نقول الآن: هذه الغفلة يمكن أن تأتي لأيّ أحد! فالمؤمن تأتيه الغفلة ويتصرّف بقلبه وهو غافل عن ربّه، يغفل أنّ ربّه مطّلع على قلبه، لكن ما أن

---

(١) الذاريات: ٥٥.

يتذكّر إلّا ويعود؛ مشكلة المنافق مختلفة تمامًا! فأصلًا الأمر ليس على باله، بل هذه عقيدته: (أنّ الله لا يعلم كثيرًا ممّا يعمل)!

فهذا كنموذج الآن، لكن هذا ليس هو الظّنّ السّيّئ فقط! فنحن سنسير على ما ذكره الشّيخ -رحمه الله- في الرّسالة، ونرى كيف أنّ هناك ظُنونٌ كثيرة سيّئة، وهناك أسوأ من هذا الظّنّ الّذي نتدارسه الآن، أعظم وأسوأ؛ وربّما الظّنّ الثّاني الّذي سنتدارسه -الأسبوع القادم- قليل من يخرج منه -الله يعافينا ويشفينا!-

هنا واضح الآن هذا الظّنّ. ماذا كان نتيجة هذا الظّنّ؟ أنّهم عملوا الأعمال السّيّئة وأمنوا من مكر الله، فالكبيرة هنا هي المشكلة! أنّ الأمن من مكر الله **سببه**: أنّهم أساؤوا الظّنّ بالله:

⇐ وظنّوا أنّ ربّهم لا يعلم عنهم ماذا يفعلون!

⇐ وظنّوا أنّ ربّهم حتّى لو كان يعلم عنهم ما يفعلون، أنّه -سبحانه وتعالى- راضٍ عن أفعالهم ولن يعاقبهم!

فهذه الظّنون السّيّئة هي الّتي أوصلتهم إلى الأمن من مكر الله!

نحن سنعيد الّذي قلناه في بداية اللّقاء: كنّا نسأل سؤالًا: ما سبب كون الأمن من مكر الله كبيرة من الكبائر؟ لماذا هو كبيرة من الكبائر؟ **الآن تبيّن لنا**: لأنّ الأمن من مكر الله منطوٍ على سوء الظّنّ بالله؛ فلا أحد يأمن من مكر الله، ويدخل في الكبائر الواحدة تلو الأخرى وبكلّ استهتار، إلّا وتكون عنده مشكلة في الظّنّ بالله: أساء الظّنّ بالله! فقيل لهؤلاء: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي

ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾، ماذا فعل؟ ﴿أَرْدَاكُمْ﴾، إذًا: ظنّ السّوء ماذا يفعل في أصحابه؟ يُرديهم في جهنّم! والظّنّ الحسن في الله ماذا يفعل؟ من المؤكّد أنّه يُعلّيهم عند ربّ العالمين.

ولذلك حين تدخلين في أيّ مسألة، سواء كانت الأمور ضيّقة عليك، أو كانت الأمور واسعة عليك؛ أوّل شيء لابدّ أن تسألي نفسك في هذه المسألة الّتي تدخلينها وتعملينها: (ماذا تظنّ ربّك فاعل بك؟)، بمعنى:

نفترض مثلًا: ذهبت تشتري لنفسك بيتًا، مسألة مهمّة. وأنت في الطّريق هناك مخاوف في داخل نفسك: (أنّهم يغشّونك! أنّهم يكذبون عليك! أنّه لا تجدين ما تبتغينه!)؛ فهنا أمام المخاوف من الخلق، لابدّ أن تسألي نفسك: (ما ظنّك بربّك؟ ماذا سيفعل لك لو التجأت وتعلّقت به؟)، من المؤكّد أنّ العبد إذا لجأ لربّه، وهو ظانّ في ربّه: (أنّه يعينه، أنّه يبارك له، أنّه ييسّر له، أنّه يختار له ما يوافق حكمته)، ويرى بعد ذلك هذا الشّأن العظيم فيما فعله، أو اشتراه، أو قام به؛ لابدّ أن يحصل في النّفس من الطّمأنينة ما يحصل، المشكلة: أنّنا ندخل على الأمور، ولا نسأل أنفسنا: (ماذا نظنّ بربّنا؟)

يأتي أحد خائف مثلًا: من التّطبّب، قالوا له: (لابدّ أن نفعل لك كذا)، وهو في طريقه يقول: (أنا أشعر أنّني سأموت في هذه المسألة! أنا أشعر أنّهم سيخطئون وسيحصل هناك خطأ طبيّ!) فكلّ البلاءات يأتي بها أمام عينه! نقول: (أحسن الظّنّ بالله! اطلب الله وأنت ستكون في حفظ الله، وقل لنفسك: ماذا تظنّين بالحكيم، العليم، الرّحيم، المجيب، اللّطيف، الرّؤوف، ماذا تظنّين به؟)، فلابدّ حين ندخل على المسائل الّتي تزعجنا، أو تخيفنا؛

نبش في نفوسنا: (ماذا نظنّ بربّنا؟)، فإذا وجدنا أنفسنا سيّئوا الظّنّ بالله، ماذا نفعل؟ نغسل قلوبنا من هذا الظّنّ! لأنّ المسألة الأكبر والأخطر أنّ الإنسان آثم في سوء ظنّه بالله! يصير ارتكب كبيرة لو دخل على مسألة وهو ينتظر من ربّ العالمين شرًّا!

ماذا نعتقد في الشّرّ ونحن مؤمنون؟ أنّ «الشَّرّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1]؛ إنّما نعتقد أنّ الخير بيديه -سبحانه وتعالى- وأنّ الشّرّ لا يُنسب إليه أبدًا. حتّى لو رأيت ما تعتقدين أنّه شرّ؛ لازلت تحسنين الظّنّ بالله، وتقولين: (وراؤه من الحكمة ما وراؤه). ولو تأخّرت مصالحك، تقولين لنفسك: (ستأتي في الوقت المناسب، في الوضع المناسب، في حالة مناسبة)، فلا تسمحي لنفسك أن ترسبي في الاختبار؛ لأنّ الله يحبس عنك بعض المسائل، ويرى ماذا تظنّين به.

وانظري: كيف أنّ الإنسان يرسب في الاختبار بعد الاختبار! تحبس عنه الأمور ليرى سبحانه ماذا يظنّ العبد في ربّه، يضطره لأمور ويرى -سبحانه وتعالى- ماذا يظنّ العبد بربّه؛ فأنت في مثل هذا الاختبار لابدّ أن يكون ظنّك بربّ العالمين ظنًّا حسنًا، ما تنتظر أن يعاملك إلّا بآثار كماله سبحانه وتعالى.

ولذا لو أتينا لليأس من روح الله، أفعل خطأ، والنّاس كلّهم خطّاؤون، كما أخبرنا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ»[2]. الآن أخطأت، ما هو الحلّ الشّرعي؟ التّوبة. وماذا تظنّين بربّك حين تتوبين وتستغفرين؟ أن يقبل منك التّوبة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٤٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٣٦).

حين يقول: (ربّنا لن يقبل منّي التّوبة)! **يصير هذا هو سوء الظّنّ بالله**: أن تتوبي وتظنّي أنّ الله لا يقبل التّوبة! تستغفرين وتظنّين أنّ الله لا يقبل الاستغفار! تدعين وتظنّين أنّ الله لا يقبل! فتقولين: (أنا دعوت كثيرًا وربّنا ما استجاب)! هكذا سيصير سوء الظّنّ! هكذا أتى الاختبار وما نجحت! لأنّ الله يجعلك تدعين، ويحبس عنك مصلحة لحكمة عظيمة، فإذا كنت في فترة الحبس هذه محسنًا الظّنّ بالله، تقول لنفسك: (سيأتي فرج الله في الوقت المناسب، بالصّورة المناسبة، في الحال المناسب)، يكون هذا تعلية في مقامك عند ربّ العالمين، وردًّا لوسواس الشّيطان الرّجيم، وفي نفس الوقت لا يخيّب الله ظنّك، وسيأتي مُرادك وفرجك في الوقت المناسب، بالشّكل المناسب.

فالمقصد الآن: أنّ كبيرتي اليأس، والأمن، ما سببهما الأساسي؟ سوء الظّنّ بالله!

فإذًا: اتّضح لنا على وجه العموم، ما معنى سوء الظّنّ بالله؟ سوء الظّنّ، **معناه**: عقيدتك الّتي تعتقدينها في ربّ العالمين، ماذا تظنّين أنّه يعاملك؟

نحن الآن إلى اليوم في: (ماذا تظنّين أنّه يعاملك؟) ربّنا يمدّ في العمر على صحّة وعافية وإيمان، اللقاء القادم نتكلّم حول: ماذا تظنّين أنّ ربّنا يعامل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ ودينه؟ وأمّته؟

دعنا نفكّر الآن: في جريمة سوء الظّنّ، كيف من الممكن أن تخرج -الله يحفظنا جميعا- تخرج من نفوسنا ونحن لا نشعر! يأتي أحد من شدّة التّقوى والإيمان يبقى طيلة الوقت موسوسًا، ويقول لك: (أنا أظنّ أنّ عباداتي كلّها غير مقبولة! أظنّ أنّ طاعاتي كلّها غير مقبولة!)! نحن نحتاج الخوف، لكن لا

يوصّلنا إلى اليأس! إذا وصلنا إلى اليأس، كأنّنا نقول: (إنّ ربّنا قال عن نفسه إنّه غفور رحيم!)، وكأنّ العبد يقول: (وأنا لا أصدق ذلك)! فالّذي يقول: (ربّنا لن يغفر لي)! كأنّه يقول ذلك!

لأنّك أنت تبت واستغفرت؛ **إذًا**: أحسني الظّنّ بربّ العالمين! خائفة من أن تكون توبتك واستغفارك ضعيفة؟ لا تقولي: (ربّنا لا يغفر لي)! وإنّما قولي: (أنا سأزيد، وأزيد، وسأجدّد الاستغفار، وأجدّد التّوبة، وأفعل ما أستطيع)، انسبي النّقص لنفسك، لا تسيئي الظّنّ بربّك! قولي مثلا: (توبتي ضعيفة، يا ربّ أعنّي على توبة قويّة! يا ربّي يسّر لي توبة تمحو ذنوبي)، يعني: تبقين راجية في ربّك مادام فيك روحًا، لا أن تقطعي الأمل بربّ العالمين!

كيف أنّ ربّنا يقول في سورة الحجر، يأمر نبيّه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1]، ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾، النّبأ هذه كلمة، معناها: اجمع الخلق جميعًا، وأنبئهم، وأخبرهم هذا الخبر العظيم، ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فكيف تترك هذا المعنى من نفسك؟! النّقص يصير منّا، لكن ربّ العالمين له الكمال، والجلال، والعظمة؛ قد تسيئين الظّنّ بنفسك، نعم، لكن تبقي أَمَلَك بربّ العالمين، ولا تجعلي الشيطان حتّى يُيئسك من نفسك! بل ما دمت حيّة فإنّ الله يبسط يديه في النّهار ليتوب مسيء اللّيل، ويبسط يده في اللّيل ليتوب مسيء النّهار، فهل هناك أكثر من هذا مطمعاً! ليس هناك أكثر من هذا مطمعًا مهما كانت الحال. **المهمّ**: أن لا تنامي في يومك وليلتك وأنت قد طويت قلبك على شيء من سوء الظّنّ بالله! **بل**: غدًا يبارك ربّنا! وييسر ربّنا! ويفرج

(١) الحجر: ٤٩.

ربّنا! وييسّر ربّنا! ويغفر ربّنا، وهو -سبحانه وتعالى- ينادي في ليل العباد، كما تعلمون في حديث النّزول في الثّلث الأخير من اللّيل.

المقصد الآن: أن نتصوّر: أنّه كم هو خطير أن يعلّمنا الله عن نفسه، وعن كماله، وعن جلاله، وبعد ذلك نيأس من روحه بسبب سوء الظّنّ! أو كم يعلّمنا عن عظمته، وجلاله، وقدرته، كما: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، سيُنَبِّؤُنا ربّنا عن ماذا؟ ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾[1]، فأيضًا هذا النّبأ من الجهة الأخرى يُهمل! وكأنّنا لا نراه! وكأنّنا لا نسمعه! فيصير الإنسان آمنا من مكر الله! فلا هذا الطّرف صحيح، ولا هذا الطّرف صحيح؛ إنّما يبقى الإنسان على الخوف والرّجاء.

باختصار: كيف أعرف أنّ خوفي في مكانه؟ ورجائي في مكانه؟ هي جملة واحدة: لأجل أن تعرفي هل هذه المشاعر الّتي في نفسك صحيحة؟ وخصوصًا الخوف؟ والرّجاء؟ **سيكون الضّابط**: إذا دفعك الشّعور للعمل فهو شعور صحيح، يعني: متى يكون خوفك في مكانه؟ متى تعرفين أنّ خوفك صحيح؟ إذَا جعلني أستغفر، أتوب، أقوم أصلّي، أتصدّق، أقرأ كتاب الله؛ فإذَا فعل بي ذلك، **إذًا**: هذا الخوف في مكانه.

ما علامة أنّ هذا الخوف خطأ؟ إذا منعك من العمل، وهذا يصير الخوف الشّيطاني، وهذا يصير معناها أنّ الشّيطان هو الّذي يوسوس لك.

وبالمعنى الآخر أيضًا: متى يكون رجائي صحيحًا؟ نفس الكلام: إذا كان رجاؤك طمّعك في الله، يعني: إذا أتيت وقلت: (أنا أرجو الله، وأرجو كرمه، وقد

---

(١) الحجر: ٥٠.

عرفت من كرمه أنّ الّذي يسبّح يقول: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»[١]، فتقوم بالطّمع مباشرة، وتمسك «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»؛ فالعمل يدلّ على أنّك راجية، أنّك على الطّريق المستقيم.

متى يكون هذا الرّجاء ليس في مكانه؟ حين تقول: (أنا في رحمة الله)! يُقال: (اعمل! رحمة الله لها أسباب وقد جاء في الأسباب نصوص كثيرة!)، لكن يترك العمل، ويقول: (أنا معتمد على رحمة الله)! إلى درجة أنّه ممكن أن يترك الصّلاة الّتي هي الحدّ الفاصل بين الإيمان والكفر! ويقول لك: (أنا لازالت طامعًا في رحمة الله)!

- **فإذًا:** ما هو الضّابط الّذي أعرف به أنّ هذه المشاعر صحيحة؟ الدّفع للعمل.
- متى يكون الخوف، والرّجاء شيطاني؟ إذا منعنا من العمل.

بهذا يكون الأمر سهل وواضح جدًّا، وما يختلط الأمر؛ لأنّ الشّيطان يأتي إلى مشاعرك ويقبض عليها، ودائمًا يحاول أن يجعلك في عدم اتّزان شعوريّ، لا تعرف الآن: (هل أتقدّم أم أتأخّر! هل أعمل أم لا أعمل!)، فتصوّري: لو أنّ الشّيطان تسلّط على أحد هكذا، وطوال الوقت يقول له: (أنت لست مقبولًا! أنت مطرود من رحمة الله! أنت كذا! أنت كذا!)! تصوّري ماذا سيحصل فيه! سيُشَلّ في مكانه وهو معتقد بنفسه أنّه يخاف الخوف الصّحيح! لا! فإنّ هذا

(١) أخرجه مسلم (٤٩٨٦).

ما هو إلّا خوف شيطاني؛ لأنّ الشّيطان كما ذكر السّلف: "يتشمّم قلب ابن آدم." يأتي هكذا عند قلبه ويشمّه، ويرى ما هي نقطة ضعفه؟

⇐ الخوف! فيقوم بزيادة الخوف وزيادة الخوف إلى أن ييأس!

⇐ الرّجاء! فيزيد الرّجاء ويزيد الرّجاء إلى أن يقع في الذّنوب!

فقط أنت من؟! والصّحيح أنّك في المقابل ماذا تفعلين؟ سُوسِي نفسك! سايسيها إذا وجدت نفسك اتجهت إلى الرّجاء خوّفيها، وإذا وجدتها اتجهت للخوف الّذي يوصّلها إلى اليأس رجّيها، وفي كلّ مرّة تميل فيها إلى كذا أو كذا فأنت دبّري نفسك ووجّهيها إلى كذا أو إلى كذا؛ لأنّه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[١]، فأنت تقضي الوقت فقط من أجل أن تخرج هذه النّفس ناجية، وأنت تخرج معها ناجيًا. **فإذًا**: هذا جزء من الكلام في سورة فصلت، فيه ما فيه من كلام عظيم، لكن نكتفي بذلك.

نجيب على سؤال **يقول**: الإيمان الآن الّذي هو موجود في نفوسنا، كيف من الممكن أنّه بعد وجود الإيمان الّذي أتانا من الكتاب، كيف يمكن أن يصل الإنسان لسوء الظّنّ! يعني: كيف يبتدئ مؤمنًا وينتهي سيّء الظّنّ بربّ العالمين! بسهولة نجد الجواب في سورة الحديد:

---

(١) الشمس: ١ـ ٩.

التّعليق على دليل موطن الحديد (١٦)

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1].

الآن هذا التّحذير في الآية للّذين آمنوا: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهذا نزل على الصّحابة الكرام، فهم مع إيمانهم وتقواهم وارتفاع منزلتهم، حُذّروا هذا التّحذير!

الّذي يهمّنا الآن من الآية وهو متّصل بمسألة سوء الظّنّ: أنّه هل يمكن أن يتحوّل الإنسان من الإيمان إلى أن يصل لسوء الظّنّ بالله؟ كيف حذّرنا الله عزّ وجلّ؟ ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، عندهم الكتاب، والكتاب فيه خبر عن الله (أسمائه وصفاته وأفعاله)، وكتابنا فيه الخبر العظيم عن الله، وكلّ الكتب الّتي نزلت على الرّسل، **لابدّ أن نعتقد**: أنّ الكتاب الصّحيح غير المحرّف مليء بالأخبار عن الله. الآن ﴿كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾، ماذا حصل لهم؟ ماذا كان المتوقّع منهم حين ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾؟ أن يؤمنوا به، وأن يحسنوا الظّنّ بالله، نحن بالنّسبة لنا نبدأ من الفاتحة، وكلّ يوم نقرأ في الفاتحة عن ربّنا أنّه: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2]، وأنّه: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[3]، وكلّ يوم نقرأ أنّه أحد وأنّه صمد، وكلّ يوم ندعوه بالاستعاذة، ونقرأ عنه أنّه ربّ النّاس وملك النّاس وإله النّاس، ألا يتكرّر هذا علينا في كلّ يوم؟

---

(١) الحديد: ١٦.

(٢) الفاتحة: ٢.

(٣) الفاتحة: ٣.

فالمقصد الآن: تصوّري كلّ هذه الأخبار الّتي ابتدأت في القرآن من الفاتحة بالخبر عن الله، إلى سورة النّاس في الخبر عن الله؛ ما هو المطلوب منك؟ أن تعتقدي ما أخبر الله به في كتابه، ويصير ظنّك في ربّك -عقيدتك- مبنيّة على الخبر الّذي جاء في الكتاب؛ سواء الخبر الصّريح -أسماؤه، وصفاته- أو الّذي يأتيك عن طريق القصص، يعني: تقرئين سورة يوسف وتتأثّرين بها وتعرفين أنّ الله: ﴿غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، أليسوا إخوته قد حاولوا أن يدفعوه لأجل أن يمنعوه من المكانة! كيف أنّ الله ﴿غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. فلو اجتمع كلّ النّاس على أن يمنعوا عنك خير الله إنّما هم ييسّرون لخير الله لأجل أن يأتي، كلّ هؤلاء الّذين اجتمعوا للمنع: إنّما اجتمعوا للتّيسير وهم مساكين لا يدرون!

فهذا الّذي تستفيدينه أنّ الله ﴿غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ من يوسف. تقرئين في القصص، وتسمعين عن أم موسى كيف يُقال لها: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[2]؟ فكلّ هذه المعاملة من ربّ العالمين توجب لك حسن الظّنّ به؛ ولا توجد حالة تمرّين بها إلّا وفي القرآن وصف لها، ويُقال لك ماذا تعتقدين بربّ العالمين، علمها من علمها، وجهلها من جهلها.

بذلك المفترض أن يكون قلبك ليّن، تعرفين ربّ العالمين. ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾، أين الأزمة الآن؟ ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ هذه هي الأزمة! يعني: من قبل ٤ أو ٥ أو ٦ سنوات تعلّمت عن أسماء الله، وانتهيت،

---

(١) يوسف: ٢١.

(٢) القصص: ٧.

فتشعرين أنّه يكفي! متى قريبًا سمعت عن اسم الله الرّحمن الرّحيم؟ متى قريبًا درسته وقرأته وجدّدت الشّأن فيه؟ متى؟ فتقولين لنفسك: (منذ زمن أعرفه! والرّحمن يعني صاحب الرّحمة) فقط وانتهى الموضوع! فنقول: لو طال الأمد تقسوا القلوب! فهذه المسألة تحتاج إلى تجديد دائم، واعتبري أنّ العلم عن الله بالنّسبة لروحك كالدّماء بالنّسبة لبدنك، هل هناك أحد يقول لنفسه: (لا نحتاج الدّورة الدّمويّة اليوم، فطوال الأسبوع لدينا الدّورة الدّمويّة)! لا أحد يقول لنفسه ذلك! بل لا أحد يقول لنفسه: (لا تتناول الغداء اليوم لأنّك بالأمس تَغَدَّيْت)! ولا أحد يقول لنفسه: (لا تتعشّى اليوم لأنّك بالأمس تعشّيت)! فالنّاس يقومون في الصّباح يفطرون، مع أنّهم أمس في اللّيل قد تعشّوا، لكنّهم في نفس الوقت لا يقولون لأنفسهم: (يكفيك الأكل السّابق)! والرّوح المسكينة الّتي بين الجنبين ما الّذي يغذّيها؟ العلم عن الله بالنّسبة للرّوح كالدّماء بالنّسبة للبدن؛ بل أعظم منها؛ لأنّ الرّوح ليس لها صوت فالنّاس مُهْمِلوها! أمّا البدن يبقى يؤذيك ويؤذيك حتّى تنفعلي مع ما يريد، لكن في النّهاية الرّوح تنغلق على صاحبها فيحصل له ما حصل لهم!

ماذا حصل لهم في النّهاية؟ ﴿كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾، وهم ما بهم؟ ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ ولم ينتفعوا بكتابهم! ولم يعرفوا ربّهم من الكتاب!

نحن منذ زمن نعرف أنّ ربّنا عليم، وربّنا مطّلع، وربّنا محيط، لكن هذه المعلومات القديمة حين يطول الأمد عليها ما يكون لها آثر في فؤادك؛ وأنت جرّبي نفسك، انظري حين تقرئين كلامًا قديمًا قد قرأته في المعرفة عن الله،

كيف أنّه اليوم يُؤثّر عليك تأثيرًا مختلفًا عمّا سبق؟ وكيف يحيي في نفسك معنى كان موجودًا، لكنّه مع الأيّام طال الأمد، فذهبت الآثار!

وأبسط من هذا من أجل أن يكون الأمر أسهل في التّأثّر، انظري: حين تأتي ليلة الجمعة، ونهار الجمعة، تصلّى على الرّسول الكريم -صلّى الله عليه وسلّم- و **انظري**: الجمعة الّتي تقرئين فيها أحاديث عن فضل الصّلاة والسّلام على رسول الله، تقرئين أحاديث الفضل وكيف أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يردّ عليك، كيف يكون موقفك؟ هل مثل المرّة الّتي لم تكوني قرأت فيها؟ لا. يصير مثل الدّماء الجديدة الّتي أحيت الرّوح للقيام بالعمل! فيصير معنى ذلك أنّنا ظلمنا أنفسنا حين نهجر المعرفة عن الله، يهجر الإنسان المعرفة عن الله على أساس أنّه هو يعرف ربّنا بالإجمال! ويكون يعرف أتفه الأمور! وشغل وقته برؤية أسخف الأشياء! وضيّع قدراته من سمعٍ وبصرٍ وفؤادٍ في تتبّع أخبار لا قيمة لها ولا يُسأل الإنسان في قبره عنها! ويترك «مَنْ رَبُّكَ ؟»[1]، الّتي سيُسأل عنها! فهذا كلّه لابدّ أن يسبّب في نهاية الأمر: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾!

وإنّ أوّل مظهر في قسوة القلب: سوء الظّنّ بالله! فيصير الإنسان بعدما كان يعرف عن البركة، وأنّها لو حلّت في شيء جعلته أحسن ما يكون، ينسى هذه المفاهيم؛ يخالط أناسًا أهل دنيا، كلّ الأمر عندهم الحسبة! يحسبون! ويقولون لك: (كوني منطقيّة! كوني واقعيّة! كوني طبيعيّة)! إلى آخر هذا الكلام. وعندهم (١+١=٢) وهذه الحسبة لا يخلّ بها شيء! وأنت تقولين: (لا!

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٣٢١).

أنا عشت في حياتي، ورأيت كيف يبارك الله -عزّ وجلّ- فيما يُعطي سبحانه وتعالى، ورأيت كيف يسدّ الله ثغرات العبد من حيث لا يحتسب) لكن تنسي هذا المفهوم، وتختلطي مع أناس من أهل الدّنيا قاسية قلوبهم، فيطول عليك الأمد، وتكون النّتيجة ماذا؟ أنّك تنسين عن ربّ العالمين أنّه ينزّل البركات! ولا تفكّرين في الخيرات إلّا من جهة تحصيلك وأنّك أنت تجرين وراءها! وأنّك أنت احبسيها! ولا تعطي! ولا تفعلي! لأجل أن يكون عندك! ما تدري أنّ عملًا صالحًا ينزّل بركات توفّر عليك جهودًا عظيمة كلّها من فضل الله ومن الإيمان به سبحانه وتعالى.

المهمّ لابدّ أن نعرف: أنّنا نظلم أنفسنا بالاعتماد على المعرفة العامّة عن الله! هذا هو الظّلم الّذي نظلم أنفسنا به: الاعتماد على المعرفة العامّة عن الله، ونترك ما وهبنا الله إيّاه من قدرة على القراءة، من قدرة على الاستماع، نترك هذه العطايا العظيمة الّتي أعطانا ربّنا إيّاها، نترك هذه القدرات ولا نستخدمها في معرفة الله! فماذا تكون النّتيجة؟ ظلمنا أنفسنا! وضعنا قدراتنا، وقُوانا، وأوقاتنا فيما يسبّب قسوة القلب! نعتمد على المعرفة العامّة ونترك بذل الجهد في المعرفة الخاصّة! وهذه المعرفة الخاصّة لها طريقها اليسير، الله -عزّ وجلّ- في كتابه أخبرنا عن نفسه.

فأنت الآن فقط اسألي نفسك بدون أن يتدخّل أحد، أو يرشدك، أو يعلمك: مرّ عليك من أسماء الله -عزّ وجلّ- الشّيء الكثير، مرّ عليك مثلًا: اسم "الرّحمن الرّحيم" مثلا من الأسماء المشهورة؛ كلّ سورة في القرآن، هل تبحثين فيها عن هذا الاسم؟ هل تعرفين هذه السّورة ماذا تتضمّن من أسماء

الله بحيث أنّك تقولين لنفسك: (نعم، أنا أعرف سبأ فيها كذا، وأعرف فاطر فيها كذا، وأعرف فصلت فيها كذا)، هل هذا هو الحاصل؟ أنّني أقول لربّ العالمين: (قد جعلت كتابك طريقي لمعرفتك؛ بحيث أنّني حين أصل إلى قبري، وأُسأل: من ربّي؟ أكون فعلت ما أستطيع!)، فـ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[1]؛ فلابدّ أن نجتهد، وقبل أن تلتفتي يمنة ويسرة من يعلّمك؟ ادعي ربّ العالمين واجعلي هذا هو المقصود في قولك في أذكار الصّباح، فنحن في أذكار الصّباح نقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا»[2]. فاجعلي قلب العلم النّافع الّذي تودّينه: أنّك لا تموتين إلّا وقد تمتّعت بمعرفة الله، والله إنّها جنّة! لكن الشّيطان غمّ على نفوس النّاس، وأبعدهم عن بابها! وإلّا فإنّ بابها الكتاب. والحمد لله ها هو منتشر في مجتمعنا حفظ كتاب الله، منتشر في مجتمعنا حتّى الكلام عن التّدبّر، **لكن المشكلة**: تشتّت الجهود، وما انطلقت من النّقطة الصّحيحة! يعني: هناك جهود كثيرة مبذولة، والنّاس قد بذلوا جهودهم، **لكن النّقطة الصّحيحة أنّك تفكّرين**: الاختبار الأخير الّذي سيكون في قبورنا، سيكون كم سؤالًا هناك؟ ثلاثة أسئلة، اخرجي من الدّنيا وأنت قد وصلت درجة اليقين فيها، وصلت للعلم التّامّ الموجب للعمل؛ فالعلم التّامّ ليس بأن تتلعثمي عندما تُسألين عن: معنى اسم الصّمد؟ فتتلعثمي وتأتين بكلمات متقاطعة! وتأتين من هنا وهناك بكلمات متقاطعة! والسّبب أنّك فهمته عمومًا! ولكن لماذا فهمته عمومًا! وأين ذهبت الأوقات والجهود؟ وهذه خاصّة للنّاس المتعلّمين

---

(١) إبراهيم: ٢٧.

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨٦٦٨).

الّذين يقرؤون ويكتبون ولهم علاقة بالعلم؛ **فإنّه من المفروض**: أن تكون مسؤوليّة المتعلّمين أن يصلوا إلى درجة اليقين في معرفة "الرّحمن الرّحيم"، ويصلون بغيرهم لدرجة اليقين.

ليس عليك شاهد أنّك تقرئين وتكتبين وفي النّهاية أهمّ شيء يجب أن تتعلميه، وأهمّ عقيدة يجب أن تخرجي بها، تكون هي آخر العقائد!

فهؤلاء أوتوا الكتاب! ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، وبعد ذلك في النّهاية ماذا يكونون؟ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾! فهذه هي النّتيجة! في البداية يكون معهم الكتاب، ويعرفون الكتاب معرفة إجماليّة، وبعد ذلك يطول الأمد وهم بعيدون عن الكتاب! فينتشلهم هذا العلم! وتأخذهم هذه الثّقافة! وتأخذهم هذه الفلسفة! وإلى آخره! ويصير قلبهم مليئًا بالأخلاط! إلى أن يطول الأمد فيقسو القلب! ما هي النّتيجة الّتي ستكون؟ إذَا قسى القلب ذهب حسن الظّنّ بالله! فمن الممكن أن يصلوا بهذا إلى ما قرأنا في سورة فصلت، الّذي هو الظّنّ الّذي أرداهم. ماذا ظنّوا هم في سورة فصلت؟ أنّ الله لا يعلم كثيرًا ممّا يعملون! فصاروا بذلك: فاسقون! ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾! ما الّذي أوصلهم إلى الفسق بعدما كانوا أهل كتاب؟ هي كلمة واحدة: ﴿طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾، يعني: طال الأمد في المعرفة. ابتعدوا تمامًا عن علوم الكتاب! (طال الأمد)، يعني: الزّمن، صار بينهم وبين علوم الكتاب مسافة عظيمة. نفّروهم عن علوم الكتاب! جعلوا من يتعلّم علم الكتاب وكأنّه درويش لا يفهم الدّنيا!

فهذه كلّها أشكال وألوان على حسب الجماعات، والمجتمعات، والأوضاع، لكنّهم في النّهاية صاروا في مكان، وصار كتاب الله والعلم عن الله في مكان آخر! فكانت النّتيجة أنّها ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بسبب أنّ الّذي يليّن القلب **هو**: معرفة الربّ! فقط معرفة الله! والّذي يعرف الله في فؤاده يرى آثار ذلك في كلّ شيء!

الحياة مكتوبة بلغة لا يفهمها إلّا من عرف الله، لا يفهمها إلّا من عرف أسماء الله، وبعد ذلك يفهم ما الّذي يحصل حوله؛ ومن ثمّ يقول: (نعم، هنا حصل لي كذا لأنّني ابتعدت فأراد الله أن أقترب وأستغفر، فتح لي باب المغفرة، هنا فتح لي باب الرّفعة، هنا أصابتني الحمّى لأنّ الحمّى نصيب المؤمن من النّار، فأصابني هنا في الدّنيا لأجل أن يبعدني عنها، وهنا جبر قلبي، وهنا سترني، وهنا رزقني، وهنا أعطاني، وهنا قرّبني، وهنا فهّمني وعلّمني) فتصير الحياة إنّما هي كتاب لمعرفة الله، لا يتمكن من قراءته إلّا من عرف الله.

فالمفترض: كلّ الجهود تكون مبذولة:

أوّلًا: في الدّعاء.

ثانيًا: في أخذ الأسباب لتعظيم معرفة الله.

لابدّ أوّلًا أن نعظّم معرفة الله ونراها مقصد العلم! وإلاّ فإنّه كيف يبات العبد سيّء الظّنّ بربّه ولا يخاف! ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾! كيف لا تخافها؟! كيف لا تخاف أنّ سبب الإرداء

في النّار هو سوء الظّنّ بالله. وانظري إلى هؤلاء أهل كتاب، أوتوا الكتاب، طال عليهم الأمد، قست قلوبهم، فيصيرون من أهل كتاب إلى ﴿فَاسِقُونَ﴾!

وهذا الكلام لا يخصّ اليهود والنّصارى! نعم، فهو هنا في الآيات قد نزل في اليهود والنّصارى تحذيرًا للمؤمنين، لكن في النّهاية كلّ أهل الكتاب من اليهود والنّصارى والمسلمين ينطبق عليهم مثل هذا الشّأن!

فإذًا: ما هو السّبب الّذي يحوّل الإنسان من أن يكون من أهل الإيمان إلى الفسق! ﴿طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾، يعني: ابتعدوا عن العلم الحقّ! وهذه لها خطط، ولها طرق، فهناك جهود تُبذل لأجل أنّ تَتَشتّت عن العلم الحقّ! هناك جهود تُبذل لأجل أنّ لا ينصرف عقلك للعلم عن الله حين تسمعين عن فضل العلم، هناك جهود كثيرة من أهل الباطل بُذلت لأجل أن تشتّت أنت عن هذا الباب!

فنسأل الله أن يجمّع قوانا على هذا العلم العظيم، ويفتح لنا أبوابه، ويجعلنا من أهله، ويثبّتنا على الطّريق المستقيم...اللّهمّ آمين.

جزاكنّ الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللّقاء الثّامن عشر

٢٥ جمادى الأوّل ١٤٤٠

تابع باب ذكر سوء الظّنّ بالله

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا، ونسأله بهذا الحمد المزيد من نعمائه علينا، وأن يشرح صدورنا، ويجعل الإيمان مستقرًّا في قلوبنا، وأن يذيقنا برد اليقين...اللّهمّ آمين.

كنّا بفضل الله قد بدأنا في الكلام حول سوء الظّنّ بالله، وكونه من الكبائر، وبيّنا حال المؤمنين الّذي يجب أن يكون، وطمعهم في رحمة ربّ العالمين.

وتبيّن لنا أيضًا أنّ سوء الظّنّ متّصل بالكلام السّابق، **وهو**: اليأس من روح الله والأمن من مكر الله؛ وإنّما هذا كلّه مبني على سوء الظّنّ بالله.

واتّفقنا: أنّ هناك نوعين من سوء الظّنّ بالله؛ وبدأنا **"بالنّوع المهمّ"**، المتّصل بحياتنا مباشرة، ثمّ سيأتينا **"النّوع الأهمّ"**.

سنبقى هذا الأسبوع أيضًا نناقش **"الموضوع المهمّ"** -وإن شاء الله- الأسبوع القادم نناقش **"الموضوع الأهمّ"**، في سوء الظّنّ.

بيان النّوع الأوّل من سوء الظّنّ: "النّوع المهمّ"

النّوع الأوّل من سوء الظّنّ:

ما هو الموضوع المهمّ في سوء الظّنّ؟ **هو**: ما يستقرّ في قلبك حول أحكام الله القدريّة، وحول أحكام الله الشّرعيّة، أن لا يكون هناك سوء ظنّ لا في أحكام الله القدريّة، ولا في أحكام الله الشّرعيّة؛ وهذا وراؤه تفاصيل، **معنى ذلك**: أنّ الإنسان يكون مؤمنًا بأنّ ربّنا حكيم عليم؛ كلّ أَمْرٍ أَمَرَ به في الشّريعة فهو حِكْمة، وكلّ نَهْيٍ نَهَى عنه سبحانه تعالى فهو حِكْمة. هذا إذا نظرتِ إلى الشّرعِ، وإذا نظرتِ للقدر بنفس الطّريقة، أنّه كلّ شيء يقدّره ربّ العالمين حِكْمة، كلّ شيء يعطيك إيّاه في مكانه، وكلّ شيء يمنعك إيّاه في مكانه؛ ليس هناك قدر يجري عليك صغيرًا كان أو كبيرًا إلّا ووراءه حِكَمٌ وليس حِكْمة واحدة، أدركها من أدركها وفاتت من فاتت عليه، هذا شأن المُستقبِل لقدر الله، لكن الحال أنّ قدر الله كلّه حِكْمة.

إذا بقي الإنسان بهذه الطّريقة، ينظر إلى أفعال الله القدريّة والشّرعيّة، سيُقبل على الشّرعِ إقبال من يثق، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾(١)، يعني: ما هو وصف مُحْسِنُ الظّنّ بربّه مع الشّرعِ؟ مُطيع، ويعتقد:

- ✓ أنّ الطّاعة لرسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- طريق الهداية.
- ✓ ويرى أنّه ليس هناك طريق لأن يهتدي الإنسان إلّا طريق متابعة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

---

(١) النور: ٥٤.

ودعنا نتصوّر المسألة من باب حسن الظّنّ ومن باب سوء الظّنّ: كيف تأتي طاعتك وامتثالك للأوامر من باب حسن الظّنّ؟ وعدم طاعتك من باب سوء الظّنّ؟

الآن ما هي القاعدة؟ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾: الضّمير عائد على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ﴿تَهۡتَدُواْ﴾، والمعنى: أنّه كلّ مرّة تحصل فيها طاعة للرّسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- تحصل فيها هداية إلى الصّراط المستقيم، سواء ظهر لك أنّ هذا فيه هداية للصّراط المستقيم، أم لم يظهر لك، بمعنى:

سنفترض مثلًا: من أكثر الأمور الّتي يتنازع النّاس اليوم فيها حول الطّاعة وعدم الطّاعة: المسائل الاقتصاديّة الماليّة؛ وحين يأتي أحد يقول: (إنّ هذا الفعل من صور الرّبّا!)، فيأتي أحد يقول: (لا! فإنّ هناك فوائد والنّاس يستفيدون)! أنا لا أتكلّم الآن فقط عن الرّبّا الصّريح، الّذي هو فيه مال يُدفع ويأتي وراءه زيادة؛ لا! وإنّما هناك صور كثيرة جدًّا للربّا في البيع والشّراء، وهذه يحتاج لها فقه، ولن أضرب أيّ مثال لأجل أن لا يصير أيّ شتات. لكنّها صور في متناول اليد، يعني: ممكن أن يحصل أنّك تقعِين في بيع محرّم، أو في بيع يدخله الرّبّا، وأنت لا تعرفين! تحتاجين فقهًا وعلمًا -هذا ليس موضوعي- أنا موضوعي الآن حين يأتي الفقيه ويقول لك: (هذه الصّورة الّتي اعتدت عليها، والّتي دائمًا تفعلينها؛ إنّما هي رِبًا حرّمه الشّرع)، وأنت حصل لك الاعتياد على أنّك تبيعين وتشترين بهذه الطّريقة!

مثال بسيط جدًّا دائمًا يتكرّر ليس فيه منازعة: فهناك أمثلة أصعب منه فيها منازعة دائمًا: أنت الآن عندك قطعة ذهب، تريدين بيع هذه وشراء أخرى

ثانية، تذهبين لصاحب المحلّ، تعطينه إيّاها يثّمن هو بكم سيشتري منك، وأنتِ تثمّنين الجديدة، وفي هذا المجلس نفسه تدفعين له الفرق، نفترض: أنّ قطعتك بمائة ريال، والقطعة الجديدة بمائة وعشرين. ماذا يحصل عادةً؟ أنّك تدفعين العشرين ريالًا الفرق؛ وهذا من صور البيع المحرّم! **المفترض**: أنّه ما الّذي يحصل؟ القطعة الّتي تختارينها ليس لك بها علاقة الآن؛ بيعي بيعًا مستقلًّا، وخذي مالك في يدك. وبعدما تأخذين مالك في يدك، إذا كنت تريدين الشّراء اشتريت، وإذا كنت لا تريدين الشّراء أنت حرّة. -نحن ليس لنا علاقة بالموضوع التّفصيلي الفقهي- **نحن لنا علاقة الآن**: حين يكون النّاس معتادون على هذا النّوع من البيع والشّراء، وتقولين لها: (هذا خطأ! وهذا صواب)، فيبقى يقول لكِ: (ما الفرق بينهم! ألم أشترِ في النّهاية أليست في النّهاية المسألة واحدة! ماذا يعني أن آخذ في يدي مالي وبعد ذلك أعطيه إيّاه بزيادة عشرين ريالًا! فلم لا أعطيه العشرين ريالًا زيادة!) هذا هو بالضّبط هنا سوء الظّنّ بالله! في باب أنّك تعتقدين:

- ⇐ أنّه لا داعي لهذا التّشريع!
- ⇐ وأنّه مجرّد تعقيد!
- ⇐ وأنّ هذه الصّورة هي نفسها هذه الصّورة!
- ⇐ وأنّه ليس هناك فائدة من ورائها!

طبعًا لأجل أنّ عقولنا محدودة، وكذلك المواقف بسيطة وما عندنا خبرة، فنقوم بتصوّر هذه المسألة وبدون أن يكون عندك خبرة! يعني: ليس شرطًا أن

يحصل لكِ أنتِ بعينك موقف يبيّن لك خطأ هذا النّوع من البيع وصحّة النّوع الثّاني من البيع لأجل أنّك تستسلمين لأمر الله!

حسن الظّنّ بالله يأمرك بأيّ شيء؟ ﴿إِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾، يعني: طاعة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، في هذه المسألة في كون أنّني أجعل مجلسين، وما أُدخل بيعتين في بيعةٍ واحدة، أجعل مجلسًا للبيع ومجلسًا للشّراء؛ المجلس ينفضّ بأنّ كلّ واحد يأخذ حقّه، أعقد مجلسين ولو لم يكن بينهما ولا دقيقة، لكن مجلس البيع ينتهي، وبعد ذلك يبدأ مجلس الشّراء. أفعل هذا وأنا مطمئنّة: (أنّني لو فعلته سأهتدي، ولو خالفته سأضلّ)، هذا هو حسن الظّنّ بالله.

أمّا أن يأتي الإنسان ويقول: (ما هو الفرق بين هذا وهذا! لماذا حُرّم هذا؟ لماذا هذه الصّورة محرمة؟)! فهو لا يسأل لأجل أن يهتدي؛ وإنّما يسأل من أجل أن يعترض! فهذا من سوء الظّنّ بالله، خصوصًا حين تكون المسائل في صورتها الخارجيّة كأنّه ما بينها إلّا شعرة؛ لأنّه في مثل هذه المواقف ما بينها إلّا شعرة، كون أنّني أقبض المال في يدي وبعد ذلك أرجع أعيده!

لكن: الّذي يؤمن بالله -قبل الّذي تكون عنده تجارب ومواقف حصلت له- يعرف: ﴿وإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾؛ وهكذا في كلّ شأن من شئون الحياة، تأتي في مسائل وتقولين: (أشعر أنّ هذا تشدّد! أشعر أنّ هذه الصّورة من الممكن أنّها ليست بالضّبط هكذا)، الحكم والمسألة ترين أنّها من باب إغلاق أبواب! لكن هي في الأصل المسألة سهلة. **نقول لك**: (لا! مادام أَمَرَ الله! ونَهَى الله)، **تكون النّتيجة**: ﴿وإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾، وإن تخالفوه تضلّوا.

إذًا: ما حسن الظّنّ بالله -عزّ وجلّ- في مسألة الشّرع؟ حسن الظّنّ بالله في مسألة الشّرع: أن تري أنّ كلّ ما شرع الله وطاعة رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- طريق للهداية، وسيضلّ النّاس لو تركوا هذا الشّرع. يعني **ما معنى سيضلّون؟**

نبتدئ من آثار ترك الشّرع: من آثارها ما ترينه في العالم اليوم، من اقتصاد مُنهار من جهة، ومن مشاكل وحروب من جهةً أخرى؛ هذا الّذي ترينه أثر ترك طاعة دين الله! **إذًا:** إذَا أطعتم رسول الله اهتديتم، وإذا لم تطيعوه ستضلّون في دنياكم قبل أخراكم، وخصوصًا في باب المعاملات، طبعًا في باب الاعتقادات أعظم وأعظم! **لكن المقصد**: أنّ النّاس يشعرون بهذا في باب المعاملات جدًّا!

والّذي يستهتر بالرّبّا، ويقول: (رابينا وما رأينا شيئًا! رابينا وعشنا)! وما يدري كيف تأتي الحرب من الله! ومتى يأتي وقت الحرب! وما يعرف يفسّر أنّ نزع البركة في النّفس، وفي الأولاد، ونزع راحة البال؛ إنّما هي من آثار الرّبّا! المشاكل الّتي تصير في البيوت من آثار الرّبّا! ونسبة الطّلاق مرتفعة من آثار الرّبّا! فعدم تفسير أنّ هذا معنى أنّه الإذن بالحرب من الله، هذا الّذي يسبّب عند النّاس أنّهم لا يفهمون أنّ سبب ما يرون هو مخالفة دين الله! **فأين المشكلة بالضّبط؟**

المشكلة: أنّه يحصل غرر عند النّاس ولا يربطون بين النّتائج وأسبابها، بمعنى: يأخذ قرضًا ربويًّا، ويذهب يشتري البيت، ويسكنه، ويشعر أنّه أنجز ما يريد؛ فالآن هو سكن في البيت، ظنّ أنّه ليس هناك حرب مادام سكن إذًا

انتهى الأمر! يسكن البيت فيجد من المنازعات، والخلافات، والمشاكل من الدّاخل والخارج، والاضطرابات النّفسيّة، والتّفرّق الأسري، ما تفسيره أنه لأثر الرّبّا! **المشكلة أين؟ المشكلة**: أنّنا لا نفسّر الحدث بالسّبب الحقيقي، فنبقى نقول: (هذه المشكلة حصلت لأنّ هذه المرأة غير جيّدة! لأنّ هذا الولد غير جيّد! لأنّ هذا الجار غير جيّد!) ولا نردّها لأصل المشكلة، للسّبب الحقيقي!

إذًا: من سوء الظّنّ بالله: أن يعتقد النّاس أنّهم في غنى عن شرع الله! وهذا من أعظم سوء الظّنّ! وأنّهم من الممكن أن يعيشوا من دون أن يعرفوا شرع الله سواء كان هذا في اعتقاداتهم أو كان في معاملاتهم!

ولذلك كلّ شخص يتعرّض لأيّ نوع معاملة، لابدّ أن يعود إلى الشّرع وينضبط به، ويعلم أنّ في الشّرع أسرارًا لا يمكن لأحد أن يكتشفها جميعًا إلّا إذا عايشها، وحتّى لا يستطيع أن يكتشفها جميعًا. وفي نفس الشّأن أنّ في الشّرع من المسائل، الّتي تغلق عليك أبوابًا من الشّرّ العظيمة، أنت لا يمكنك أن تدركها، يدرك هذا الشّرّ من عاش الشّرّ.

إذًا: هذه أوّل صورة من صور سوء الظّنّ بالله. ما هي هذه الصّورة؟ اعتقاد أنّ النّاس في غنى عن شرع الله!

نأتي للصّورة الثّانية الّتي هي متّصلة بالأقدار: وهذا أيضًا فيه كثير من سوء الظّنّ بالله! **وتفسير سوء الظّنّ هنا**: أن يعتقد الإنسان أنّه ذو حظّ ضعيف في الدّنيا، ودائمًا يصف نفسه بأنّه منحوس، وأنّه دائمًا الدّنيا مكدّرة في وجهه، وكأنّ ربّه ما قدّر عليه إلّا الشّرّ، وأنت في عقيدتك: (أنّ الشّرّ ليس

إليك يا ربّ العالمين، وأنّه منفيّ عن ربّ العالمين)، فحين تمرّ على الإنسان أقدار لا توافق هواه، هو يفسرّها بماذا! بسوء الظّنّ بالله، ويظنّ أنّ ربّه ما أعطاه نصيبًا من الدّنيا، وأعطى هذا، ولم يعطِ هذا، وينقل تفكيره في ربّ العالمين كما يفكّر النّاس في النّاس!

النّاس الآن حين يكون هؤلاء أبناء وهذا والدهم، ويعطي هذا ويمنع هذا لسبب ما؛ دائمًا الّذي لا يُعطى، ما الّذي يكون في تفكيره؟ أنّ الأب متحيّز لهذا! وأنّ الأب ظالم! وأنّ الأب كذا وكذا من الأوصاف! مهما كان في ذلك من الأب لحكمة، مادام الأب ما وافق هوى الابن مباشرة يكون الأب متّهمًا وظالمًا!

هذا يفعله النّاس مع بعضهم، وممكن أن يظلم الوالد، وممكن أن يكون متحيّزا صحيح، لكن حين تخرج من الكلام عن الخلق إلى الكلام عن ربّ العالمين، إذا فكّرت بهذه الطّريقة يصير هذا اسمه سوء ظنّ بالله. أن تظنّي أنّه يمنعك بخلًا، وهو -سبحانه وتعالى- الكريم، الجواد، يده «سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»[1]؛ وإنّما المنع لحكمة، والعطاء لحكمة.

ولنضرب مثالًا لتتصوّروا هذه المسألة: الحكمة هذه سواء كنت تدركينها أم لا تدركينها فهذا شأنك، لكن دعونا: نتكلّم عن النّظرة العامّة للاقتصاد العالمي، للاقتصاد عمومًا، الآن تصوّري: لو أنّ كلّ النّاس تحت أيديهم جبالًا من الذّهب والفضّة، هل سيصير النّاس كلّهم أغنياء! أم سيصير النّاس كلّهم فقراء! ما هي النّتيجة الحقيقية؟ النّاس كلّهم سيصيرون فقراء! **والسّبب**: أنّ الذّهب لن يكون له قيمة! والفضّة لن تكون لها قيمة! ستصير مثل الحجارة

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠١٦).

بالضّبط! فلن تصير عملة يمكن أن يحصل بها التّبادل، وهذا الّذي يسمّونه: بالتّضخّم! ويصير ليس هناك قيمة!

لكن: الله -عزّ وجلّ- ينزّل كلّ شيء بمقدار. فيصير هذا له ثمنه، وهذا بالضّبط له ثمنه، يعني: الذّهب قليل، والفضّة أكثر منها بقليل، فيصير هناك مقدار، فتصير هناك حركة.

على كلّ حال، هذا الشّيء العالم ذاقه، يعني: في أيّام الاستعمار الإسباني، ذهبوا إلى أمريكا الجنوبيّة ووجدوا جبلًا من فضّة، وأخذوا منه أطنانًا ورجعوا إلى إسبانيا، أوّل نتيجة حصلت أنّه سقط السّوق الإسباني، وحصل الّذي يسمّونه: التّضخّم والرّكود. لماذا! لأنّ كلّ النّاس عندهم، فكيف سيحصل تبادل! فصارت ليس لها قيمة، صارت بالضّبط مثل الحجارة! فكّرن فيها قليلًا وستفهمنها جيّدًا.

المهمّ: لماذا الأشياء تنزل بقدر؟ لأنّ الحركة الإنسانيّة لا تنفع إلّا بذلك! فلو أنّ كلّ النّاس عندهم أموال كثيرة، أصلًا لن يكون هناك حركة أبدًا، كلّ النّاس سيصيرون فقراء مرّة واحدة! فلابدّ أن يحصل هذا التّفاوت بين النّاس لأجل أن تحصل هناك حركة، ويصير النّاس يستطيعون أن يتبادلوا؛ ومن ثمّ هذا الشّيء لا يمكن أن يقدّره، وتقولين: (هذا كم يأخذ؟ وهذا كم يأخذ؟)، إلّا العليم الخبير سبحانه وتعالى، يقسم على الخلق أرزاقهم، فجميعهم يعيشون متذلّلين لربّ العالمين.

لكن الّذي ينقص النّاس أن يؤمنوا بربّهم، ويرضوا بما قُسم لهم، ويعرفوا أنّ الدّنيا ليست هي دار النّعيم؛ وإنّما هي ممرّ والآخرة هي المستقرّ، وهو -

سبحانه وتعالى- جعل من حكمته أنّ الدّنيا تكون بهذه الطّريقة. لكن يأتي يوم القيامة، وأهل الجنّة -نسأل الله من فضله- يكونون في جنّات النّعيم، تجري من تحتهم الأنهار بكلّ ما يشتهون، يلبسون من الذّهب والفضّة، ويتزيّنون، ولا يكون وقتها يهمّهم إلّا زيادة رضا ربّ العالمين، وسيكون أنفس شيء عندهم في ذاك الوقت ذكر الله، سيكون أكثر ما يدخل السّعادة على نفوسهم ذكره سبحانه وتعالى.

فالمقصد: أنّ المؤمن كما يعلم أنّ شرع الله كلّه حكمة، يعلم أنّ قدر الله كلّه حكمة من حسن الظّنّ. لكن حين يأتي أحد يقول: (هؤلاء أخذوا! وهؤلاء ما أخذوا! ونحن أخذنا! وهؤلاء ما أخذوا)! كلّ هذا يناقض حسن الظّنّ بالله، يعني: مقدار ما قُسم لك هو مقدار ما ينفعك في دنياك وأخراك، وزيادة هذا عليك يفسدك في دنياك وأخراك.

وكم من عبد دخل في الكفر بسبب عدم رضاه! وكم من عبد غِناه كان سببًا في كفره! يعني: كما يتصوّر النّاس، أنّ الفقر ممكن أن يكون سببًا لمشاكل كثيرة، كذلك الغِنى يمكن أن يكون سببًا لمشاكل كثيرة؛ وجرائم القتل، وإلى آخره، كلّها حول المال والغِنى!

فالمقصد: أنّ ما قُسم من الله يجب أن يقع في القلب الرضا به، ويُؤمن أنّ الدّنيا دار ممرّ، والآخرة دار مستقرّ، والعطاء في الدّنيا لا يدلّ على الرّضا أبدًا، ولا يدلّ على السّخط؛ فلا لو أعطى العبد رضي عنه، ولا لو منعه دليل على أنّ الله -عزّ وجلّ- ساخط عليه؛ إنّما هو مجرّد اختبار.

فحكمة الله -عزّ وجلّ- ظاهرة لمن زاد فهمًا للحياة، وحكمة الله ظاهرة بتوزيعنا، توزيع المال، وتوزيع القدرات، والمهارات، حتّى أنّ النّاس ﴿يَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[1]، يتسخّر بعضهم لبعض؛ وهذا كلّه من حكمة الله.

المهمّ: أن تعيشي الحياة وكلّ يوم يزيد عليك يزيد إيمانك بحكمة الله في شرعه، وفي أقداره؛ لو زدت هذا، **معناه:** أنّك تسيرين في الطّريق المستقيم في حسن الظّنّ بالله.

أوّل ما يقع في قلب الإنسان مثلا أنّه: (لماذا الشّرّ موجود في الأرض؟) -هذا من أسباب الإلحاد عندهم- يأتي أحد يقول: (لماذا الشّرّ يكون موجودًا في الأرض! أليس الله ليس إليه الشّرّ! فكيف يكون الشّرّ في الأرض؟) وهذا من سوء الظّنّ بالله!

ألم نتّفق بأنّ كلّ شيء له حكمة؟ فلا يوجد شيء اسمه شرّ مجرّد، يعني: حتّى إبليس ووجوده في الكون شرّ، لا أحد ينكر، لكن فيه خير! الخير من أيّ جهة يأتي؟ من باب ابتلاء المؤمنين؛ مثله الآن: وجود المنافقين، المنافقون بأنفسهم شرّ أم خير؟ شرّ. أليس لهم خير؟ يعني: لوجودهم أليس هناك أثر خَيِّر؟ هناك أثر خَيِّر؛ لأنّ وجود المنافقين، حين تأتي البلايا تقسم المجتمع إلى:

⇐ أهل إيمان ويقين.

⇐ ومنافقون.

---

(١) الزخرف: ٣٢.

ما فائدة المنافقين في المجتمع! هذا الكلام: «مرّ حذيفة رضي الله عنه، على رجل يقول: اللّهمّ أهلك المنافقين. فقال: لو أهلكهم لاستوحشتم في الطرقات»، لو أهلكهم لفقدتم الصّناعات! يعني: هم موجودون في المجتمع، ينكشفون في المواقف، وفي نفس الوقت أنت مستفيدة منهم! لأنّه لو بقي فقط المؤمنون، ماذا سيحصل؟ «لاستوحشتم في الطرقات» يعني: لم يعد هناك أحد! صار فقط المؤمنون قلة والباقون كلّهم منافقون.

ألم يسمع حذيفة الرّجل يقول: «اللّهمّ أهلك المنافقين. فقال: لو أهلكهم لاستوحشتم»؟ فلن تجدوا أحدًا معكم في الطّريق!

معنى «لاستوحشتم» ما لقيتم أناسًا! فلا تلقون آدميّين! ولا تلقون أحدًا يساعدكم! ولا أحدًا يصنع لكم! ولا أحدًا يفعل لكم! ونحن لا نحكم على النّاس؛ وإنّما المقصد: كثرتهم. هل هناك مصلحة؟ هناك مصلحة الله أعلم بها وهذا وجه من وجوه المصلحة.

فدائمًا الإنسان ينظر إلى أيّ شيء يحصل -حتّى لو كان الشّرّ وَاجِهَتُه- ويقول: (لابدّ أن يكون وراء ذلك خير)، وهكذا تُحلّ مشكلة، جعلوا منها مشكلة كبيرة، وهي عند المحسنين الظّنّ بربّهم ليست مشكلة! لأنّه دائمًا يكلّمونك -وهذه أحد الأسباب المهمّة جدًّا الّتي يتعذّر بها النّاس الّذين يريدون أن ينفلتوا من الدّين- وهي: مسألة وجود الشّرّ في الأرض، وأنّه: (كيف أنّ إلهنا الرّحمن الرّحيم يجعل في الأرض شرّا!) ما هو جوابكنّ باختصار؟ أنّه كلّ شرّ موجود لابدّ أن يكون وراءه حكمة وخير، وأصل الدّنيا أنّها اختبار، وهذا الشّرّ وجه من وجوه الاختبار الّذي يعيشه الإنسان.

على كلّ حال، نحن نسأل الله -عزّ وجلّ- أن يرشدنا إلى الصّواب، مُحسنِين الظّنّ في الله عزّ وجلّ، وظاهر حسن ظنّنا بالله في كلّ شَرْع شَرَعه، وفي كلّ قدر قدّره، سواء وافق هوانا القدر، ووافق هوانا الشّرع أم لم يوافق هوانا؛ من الممكن أن يكون علينا نحن لا يوافق هوانا، لكن هو في نفسه خير ما دام ربّ الخير -سبحانه وتعالى- قدّره.

حسن الظّنّ بالله في موقف الموت:

يبقى علينا أنّه لو بقي الإنسان في حياته يفكّر بهذه الطّريقة، أنّه: (كلّ قدر نزل عليه خير، وأنّ كلّ شرعٍ أُمر به خير)، يبقى عليه أن يصل إلى الموت وهو محسن الظّنّ بالله، يعني: طوال الحياة ما هو حسن الظّنّ بالله؟ أنّه إذا نظرت لأقداره تقولين: (أكيد أنّها خير)، إذا نظرت لشرعه تقولين: (كلّها حكمة وخير)، هكذا تعيشين الحياة وتفكّرين بهذه الطّريقة، وكلّما مرّ شيء أدركت الحكمة فيه أو ما أدركت، فأنت بالإجمال ستقولين (إنّه حكمة وخير).

طبعًا العلم يسبّب أنّ يزداد الإنسان يقينًا بالحكمة؛ وتزداد الحكمة ظهورًا له؛ ويزداد إيمانًا بكمال الله وبكمال أفعاله وشرعه، لكن حتّى لو ضعف العلم يبقى الإيمان المجمل بأنّ كلّ فعل من أفعاله خير، وكلّ أمر من أوامره حكمة وخير.

تبقين تفكّرين بهذه الطّريقة إلى أن يسلم قلبك من سوء الظّنّ، ومن وساوس الشّيطان، إلى أن تأتي لحظة الموت؛ وتكونين في حال من حسن الظّنّ بالله. ما هو حسن الظّنّ بالله في هذا الموقف الّذي هو موقف الموت؟ رجاء أن يعامله الله بالرّحمة، هذا حسن الظّنّ عند الموت، يعني: طيلة ما أنت في

حياتك سائرة، تعتقدين أنّ كلّ أفعال الله حكمة، وكلّ شرعه حكمة، وتسيرين على رضا ربّ العالمين، بذلت جهدك، الأخطاء موجودة، لكن تسيرين بين الخوف والرّجاء، وكلّما حصل خطأ خفت من ربّ العالمين، ورجوت رحمته سبحانه وتعالى، وصرت تتوبين وتستغفرين. الآن جئنا إلى لحظة الموت -نسأل الله أن يرزقنا حسن الخاتمة- الآن لحظة الموت تحتاج حسن ظنّ بالله. ما هو حسن الظّنّ بالله؟ حسن الظّنّ بالله، رجاء الإنسان في الله أن يعامله بالرّحمة، ولذلك النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أمرنا أنّه: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[١]، «وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ»، بمعنى ماذا؟ يرجو أن يعامله الله برحمته، مهما كان حاله وذنوبه. متى يكون الخوف أقوى؟ طالما الإنسان حيّ يُرزق، وعنده قوّة، طيلة ما أنت حيّة تُرزقين، عندك قوّة، غلّبي الخوف على الرّجاء، وتوبي إلى الله. حين يأتي وقت الموت المفترض الّذي يغلب على الإنسان الرّجاء.

ولذلك المجتمعين على الإنسان الّذي يحتضر، المفترض أنّه ما لهم في هذا الموقف إلّا أن يُرَجُّوهُ برحمة الله، مالهم إلّا أن يقولوا له: (إنّك تُقبل على الرّحمن الرّحيم، تُقبل على من رحمته وسعت كلّ شيء، ما تظنّ بربّك في هذه اللّحظة إلّا أنّه يُخرجك من الدّنيا ويُدخلك في رحمته)؛ بحيث أنّه لا يُقبل الإنسان على ربّه إلّا وهو يحبّ لقاء الله، لابدّ أن يُحبّ لقاء الله، وهذا الشّأن ممكن أن يكون في اللّحظات الأخيرة، أو في الأيّام الأخيرة، أو في الأشهر الأخيرة، **المهمّ**: أن يبقى الّذي يُحدّث هؤلاء، يحدّثهم بحيث أنّه يطمّعهم في رحمة الله،

---

(١) أخرجه مسلم (٥٢٥٦).

مادام انقطع العمل واستقبل الإنسان الآخرة، وأدبر من الدّنيا، ما له إلّا الطّمع في رحمة الله، وهذا يجعل الإنسان يُقبل على ربّه محبًّا لله، و«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ؛ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ»[1]، ومهما كانت حاله فيما سبق، فالحال مع الإيمان، مع شهادة أن لا إله إلّا الله، وإقامة الصّلاة فالطّمع في رحمة الله يكون عظيمًا مهما كانت ذنوبه:

⇐ إذا شهد أن لا إله إلّا الله، يعني: أتى بالأساس الّذي هو التّوحيد.

⇐ وأقام الصّلاة، بمعنى: أنّه ليس تاركًا تمامًا للصّلاة.

هذا يُرَجَّى في رحمة الله مهما كانت حالته، والله -عزّ وجلّ- واسع الرّحمة سبحانه وتعالى، وقد تكون قوّة الرّجاء الّتي في هذه اللّحظات الأخيرة كفّارة لما سبق من ذنوب، والله يعامل عباده -سبحانه وتعالى- برحمته، فلا يصحّ لأيّ إنسان أن يُقَنِّطْ أحدًا من رحمة الله عزّ وجلّ.

ومثلًا: هذا مرض الآن مرضًا معروفًا أنّه لا يبرأ منه. فدائمًا تتصوّرين أنّه في مثل هذه اللّحظات يأتي الخوف. سيخاف من الموت طبعًا. متى سيأتيه الموت؟ هو في مراحله.

فمن المفترض أنّه أوّل ما يأتيه هذا المرض الّذي لا يبرأ، المفترض أن نستقبله برجاء رحمة الله مباشرةً، فليس هناك كلمة أسرع من هذه الكلمة الّتي المفترض أن تُقال للإنسان، أنّه: (ارجُ رحمة الله، واطلب من الله حسن

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩٧٤).

الخاتمة، ونحن كلّنا ميّتون سواء كان بمرض أو بغيره، لكن ما دام جاءتك الأسباب الّتي ممكن أن تكون نهايتها هكذا قريبة، فأنت مباشرةً ارجُ رحمة الله)، مهما كان حال الإنسان. لأنّه غالبًا النّاس في مثل هذا حين تأتيهم مثل هذه الأخبار، مهما كانوا عاملين مطيعين، مباشرة يشعرون بالتّقصير، ويشعرون أنّه: (ما عندي وقت! ما عندي وقت!)، يشعرون بأنّه قد انتهى الأمر! فتضيق عليهم الدّنيا، ويصير كلّ همّهم: (متى أعمل الأعمال الصّالحة!)، ويبدأ يدبّ فيه المرض، فيعجز، ويعجز؛ فمن المفترض في هذه اللّحظات أن يكون عنده الطّمع في رحمة الله؛ بحيث أنّ الطّمع والرّجاء يجعله يقوّي يقينه بالله، ويصير يضع الفسيلة بيمينه حتّى ولو كان يُنازع، ويُخرج من قلبه الدّنيا ولا يُقبل عليها؛ لأنّ كثيرًا من الكفّار حين تأتيهم أخبار مثل هذه بأنّه أُصيب بمرض كذا وكذا، فماذا يفعل! يجمع رحاله، ويأخذ أمواله، ويقول: (دعني أتمتّع بآخر لحظات حياتي)! ويخرج مثلًا: يسافر أو يذهب لكذا أو يفعل كذا! على أساس أنّه يودّع الحياة ويتمتّع بالباقي من الصّحّة!

والمؤمن؟ نرجّيه في الله، ونقوّي يقينه بالله، ونقول: (أهمّ شيء خواتيم الأمور، أهمّ شيء اطلب من ربّنا حسن الخاتمة، وأنّ «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا ، عَسَلَهُ»[1].)، يعني ماذا «عَسَلَهُ»؟ يعني: جاء في آخر عمره وجعله كأنّه ممزوجًا بالعسل، بحيث أنّه يعمل الأعمال الصّالحة فيُختم له بها؛ وهذا من الممكن أن يكون يومًا أو يومين، ومن الممكن أن يكون شهرًا أو شهرين، ومن الممكن

(١) أخرجه أحمد(١٧٥٢٥).

أن يكون سنة أو سنتين، على حسب ما يقضي الله وأنتنّ تعرفن هذا الأمر، أنّه تأتي مثل هذه الأمراض وأناس يذهبون في غمضة عين فيها، يكون قدرهم هكذا، وأناس تمتدّ بهم الحياة، لكن في كلّ الأحوال ما لك إلّا أنّك تسألين الله حسن الختام الّذي تسبقه أعمال ورجاء في ربّ العالمين.

مرّة أخرى نلخّص الكلام الماضي: الآن نحن في باب كبيرة سوء الظّنّ بالله، واليوم ناقشنا عكسه حسن الظّنّ بالله، يعني: لأجل أن تدفعي هذه الكبيرة الّتي هي سوء الظّنّ بالله تحتاجين أن تكوني محسنة الظّنّ بالله.

إحسان الظّنّ بالله أين موقعه؟ موقعه في كلّ قدر يأتيك أو يأتي غيرك، وفي كلّ شرع عليك تنفيذه أو على غيرك؛ لأنّه أحيانًا أنا ما أشتكي من الأقدار الّتي عليّ، ولا يقع في قلبي شيء من الأقدار الّتي عليّ، لكن يأتي الكلام عن أقدار غيري! أحيانًا أقول: (لماذا هؤلاء مضطهدون! لماذا هؤلاء وقع لهم كذا!)

المسألة الأولى: أنت في كلّ شأن يتّصل بالقدر أنت محسنة الظّنّ بالله، أنّ ربّنا حكيم عليم سبحانه وتعالى.

المسألة الثّانية: وكلّ شيء يتّصل بالشّرع أنت مؤمنة أنّه حكيم.

فهذان المسألتان -إن شاء الله- تكونين محسنة الظّنّ بالله.

المسألة الثّالثة: عند الموت، أو عند اقتراب الموت، «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». «وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ»، يعني: في قلبه قوّة رجاء أنّ الله يُدخله في رحمته، وأنّه -سبحانه وتعالى- يغفر له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر، وأنّه مهما كانت حالته فمادام أنّه من أهل

التّوحيد والصّلاة فليطمع في رحمة الله، مهما كانت حالته. ولذا حتّى الّذي يموت في حالة ترين أنّها حالة فسق، وهو قد جمع بين الأمرين، وهما:

- ✓ شهادة أنّه لا إله إلّا الله.
- ✓ وإقامه الصّلاة.

فلا زال الطّمع في أنّ الله يُدخله في رحمته، هذا الأصل في عقيدتنا؛ وهذا الأصل الّذي تبنين عليه. ولا يأتيك الشّيطان في هذه المواقف الحرجة ويُيئسك من روح الله؛ هذا أخطر شيء على الإنسان، أنّه يأتيه الموت وهو لا يحبّ لقاء الله خوفًا من الله، الأصل أنّ الإنسان يبني علاقته مع الله في هذه اللّحظات على الرّجاء. إذًا انتهينا من هذه الحال.

الآن السّؤال: ما الّذي يسبّب للإنسان حسن الظّنّ بالله ويدفع عنه سوء الظّنّ بالله؟ سنقول ثلاث أسباب مهمّة، ودائمًا نكرّرها في كلّ مسألة محبوبة:

الأمر الأوّل: العلم، كلّما زاد الإنسان علمًا بالله (بأسمائه وصفاته وأفعاله)، وبشرع الله من جهة آثار شرع الله؛ كلّما تهيّأ الزّمن لحسن الظّنّ، وإنّه لا يقضي على النّاس إلّا الجهل! يعني: نحن مشكلتنا أنّ النّاس يفكّرون بناء على قواعد بيانات في أذهانهم هم، بمعنى: جاهلون ويتكلّمون عن ربّ العالمين! لا يعرفون الدّين ويتكلّمون عنه! فالجهل هو أكبر مصيبة! والنّاس يتلقّفون من بعض الأفكار والفلسفات بدون ما يكون لهم علم بكتاب الله، ولا علم بدين الله، فالجهل لا يسبّب إلّا سوء الظّنّ بالله.

واسألِي عن غالب النّاس الّذين انحرفوا، حتّى لو كان عندهم علم بكتاب الله، فهو علم سطحي ليس هناك عمق، وهذا من أكثر الخسارات الّتي نعيشها، أنّه نأتي لكتاب هو آية وبيّنة لرسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- على صدقه، وتكون ليست هذه المشاعر الّتي في نفوسنا، ولا هذه علاقتنا بكتاب الله!

على كلّ حال، صار السّبب الأوّل لحسن الظّنّ: العلم بالله وأسمائه وصفاته ودينه، علم يورث اليقين، يعني **المفترض**: أن يكون هذا العلم تامًّا وليس علمًا سطحيًّا.

الآن بعد العلم، تأتينا مسألة ثانية مهمّة وهي وليدة العلم:

المسألة الثّانية: التّفكّر، وضبط العقل بموارد الشّرع في التّفكير. من المؤكّد أنّ الإنسان أكثر شيء يقوم به ليلًا ونهارًا عقله الّذي يفكّر؛ وعقله الّذي يفكّر، مثل الطّاحونة، ضعي فيها علمًا ويقينًا ستُخرج طحينًا طيّبًا، ضعي فيها قاذورات وأحجارًا ستطحنها! فإذا كان هناك علم يقيني صحيح؛ الإنسان سيفكّر على أساس هذا العلم؛ حين يفتقد الإنسان العلم، أو يفتقد التّفكير في العلم، الآن صارت هناك مشكلتان:

المشكلة الأولى: هناك موارد غير صحيحة في العلم، فأنت تحاشيتها وتعلّمت العلم الصّحيح اليقيني.

المشكلة الثّانية: انتهينا من هذا أتينا للتّفكير، التّفكير فيه مشكلة إذا لم يُأسَّس على الطّريقة صحيحة وكان له مورد صحيح؛ يذهب بالإنسان يمنةً ويسرة!

سأضرب مثالًا: بعيدًا تمامًا، لكن تصوّرن كيف يمكن أن يحصل؟ في أحد المرّات في الحرم، جماعة من النّساء كنّ يطفن تحت، نظرن فوجدن الصّحن مزدحمًا، ونظرن إلى السّطح فوجدنه واسعًا جدًّا، قلن: (نظنّ أنّ هذه المسافة الّتي في السّطح مثل المسافة الّتي تحت سبع مرّات)! فهذه الآن كانت أوّل فتوى: أنّ مسافة الطّواف الّتي في السّطح مثل مسافة الصّحن سبع مرّات! وأيضا بعد ذلك في الأخير يقلن: (الله أعلم)! ثمّ بعد ذلك سيترتّب على هذا أنّه مادام الّذي تحت مساويًا للصّحن سبع مرّات: (إذًا يكفي أن نطوف شوطًا واحدا)! هل رأيتنّ كيف الاستنتاج! على طول هكذا يكفي مرّة واحدة! (وقمن وطفن مرّة واحدة! واجلسن واعتبرن أنّكنّ هكذا طفتنّ)!

الآن هذا التّفكير النّاضج! الحكيم! المبني على قياسات! فمهما تناقشنا ما كانت هناك نتيجة! وطبعًا أيضًا بين قوسين: (والشّرع يسر! والدّين يسر!) صحيح أنّ الدّين يسر، لكن من قال لك أن تدخلي في الطّواف أصلًا! أنت غير مكلّفة بالطّواف! فهذه وحدها لا شيء تكون! ويا ليت ولا شيء فهذه بدعة في الدّين صارت! يعني: إذا اعتدتها وفكّرت بهذه الطّريقة ستصير بدعة في الدّين.

أنا مقصدي بهذا: انظري حين يكون الإنسان عنده علم -كانت تعرف أنّ الطّواف سبع مرّات- لكن أطلق لتفكيره الحكم على الأمور وصار هو الّذي يقدّرها! وهكذا يصير في كلّ شيء: (لماذا ربّنا شرع هكذا! لماذا ربّنا قال كذا!)

يعني أنّه ما تعلّم على نفسيّة المستسلم؛ وإنّما تعلّم على نفسيّة الّذي يحكم عقله على الأشياء. والّذي ممكن لعقله أن ينتقد شرع الله وأن ينتقد حكم الله! ويكون هذا مسكين يستيقظ من النّوم وهو قد نسي اسمه! فيقوم بالحكم على شرع الله بفكره!

لكن فقط من أجل أن تتصوّروا المسألة، فهذا المثل حقيقةً وقع هكذا! قمن وطفن من أنفسهنّ! ثمّ إنّه يا ليت كنّ واحدة أو اثنتين! بل مجموعة من النّساء وكان هذا قرارهنّ! لكن حين تنظرين الآن لمثل هذا تقولين: (كم يضلّ العقل الإنسان!)، وهنّ لسن بجاهلات، ومن أن جلسن إلى أن قمن وهنّ يمسكن المصاحف يقرأن في كتاب الله! فلم يكنّ من أولئك المنشغلات ولا أولئك اللاّتي يلعبن!

لكن هكذا يضلّ الإنسان! فمهما كان هناك علم صحيح لابدّ أن ينضبط بعد ذلك التّفكير بالعلم، التّفكير يكون تفكيرَ المستسلم لربّ العالمين؛ لأجل أن تحسني الظّنّ بربّ العالمين، ولا تتعدين حدودك لابدّ أن تفكّري على أساس القواعد الشّرعيّة:

- فلا تكوني جاهلة بالقواعد الشّرعيّة وتأتين تطلقين لعقلك التّفكير!
- ولا تكوني تعلمين القواعد الشّرعيّة وترين أنّك أنت أفهم من هؤلاء!

ولذلك انظري: حين يأتي أحد ويكون أصلا ما فتح صحيح البخاري بيده! وما رآه بعينه وبعد ذلك يأتي ينتقد صحيح البخاري! هذا إنّما هو ماذا؟ المشكلة: أنّه لا يكون جاهلًا بالدّين، لكن يكون جاهلًا بالقواعد الّتي لابدّ أن يُفكّر بها، والحدود الّتي يحكم عليها، وهو لا يعرف في السّند شيئًا، ولا في الرّجال شيئًا، فجمع بين سوأتين:

⇐ بين الجهل!

⇐ وبين كمال القدرة على التّفكير والحكم على الأشياء!

دعنا نبقى في هذا المثل في صحيح البخاري من أجل أن تتصوّروا أين سوء الظّنّ بالله؟ فهذا ما هي مشكلته الّتي كانت مع صحيح البخاري؟ طبعًا أنّه يسمع الإشاعات والكلام وهو بنفسه ما عنده علم! لكن المسألة أيضًا مبنيّة على أنّه لم يفهم حكمة الله!

الدّين نزل في الكتاب بالإجمال، وأتى في السّنّة التّفصيل، والله -عزّ وجل- أنزل على رسوله ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[1]، هذه الواو عاطفة، يعني: هذان الأمران مشتركان، فلمّا حفظ الله الذّكر حفظ القرآن أوّلًا، وكان له القدح المعلّى في الحفظ، ثمّ حفظ السّنّة بالرّجال؛ فسيئ الظّنّ في الله، هو الّذي يظنّ أنّ الله يُشرّع الصّلاة، ويجعلها على المؤمنين كتابًا موقوتًا، ثمّ ما يجعل أركان الصّلاة وأفعال الصّلاة محفوظة عن رسول الله! هذا هو سيّء الظّنّ في الشّريعة! فحفظ السّنّة من حكمة الله، وكون النّاس يظنّون أنّ الله يترك السّنّة تذهب؛ فإنّ هذا من سوء الظّنّ بالله.

---

(١) البقرة ١٥١.

فلابدّ أن تفهموا أنّ هذه الجهالات الّتي تخرج علينا، إنّما هي من آثار سوء الظّنّ بالله! كلّ الشُّبه الّتي تخرج كعذر للطّعن في الدّين؛ إنّما هي من آثار سوء الظّنّ بالله! وإذا بقينا نستمرّ ونقول: (هذا وهذا وهذا!) سيظهر لكنّ كلّه إنّما هو من آثار سوء الظّنّ بالله!

إذًا من أجل أن أصل إلى حسن الظّنّ بالله:

أوّلًا: لابدّ أن أتعلّم علمًا تامًّا: لا أن آخذ من كلّ بحر قطرة فقط لأجل أن أتفلسف! ولأجل أن أعرف من هذا العلم كلمتين، ومن هذا العلم كلمتين، فإذا تكلّم هؤلاء يكون عندي كلام أقوله مع هؤلاء! لا! وإنّما لابدّ أن يكون علمًا تامًّا، والّذي لا يكون لك فيه علم ليس لك فيه كلام.

ثانيًا: على قدر ما تتعلّمين ويصير عندك يقين، على قدر ما تفكّرين بالضّوابط الّتي أتتك في هذا العلم، فكّري، فالتّفكير يزيد اليقين، ويأتي لك بشواهد زيادة على ما تيقّنت به، فأنت ستتعلّمين عن الله كماله، وسترين بعينك في الحياة ما يدلّ على كماله، فكّري بين الّذي تعلّمتِه، وبين ما ترينه في الحياة؛ ماذا سيفعل لك هذا؟ سيزيدك يقينًا! **نفترض**: أنّنا اجتمعنا وتعلّمنا اسم الرّزّاق، وخرجتِ وأنت أكثر فهمًا للرّزّاق، ستأتي ترين بعينك الّذي واقع في الحياة فيزيدك شواهد على أنّه رزّاق. فهكذا يصير التّفكير خَدَمَ العلم وازددتِ يقينًا. فإنّ هذا يسبّب اليقين.

ثالثًا: اختيار الصّحبة: الصّحبة من أكثر ما يهزّ اليقين ويأتي بسوء الظّنّ بالله: الأصحاب! والعكس صحيح: من أكثر ما يسبّب زيادة اليقين وحسن

الظّنّ بربّ العالمين: الأصحاب، وما انجر شخص في مهالك الفكر إلّا وكان له مجموعة معه، اجتمعوا معه وأوصلوه إلى هذا!

طبعًا هذه المسألة تزداد خطورتها اليوم مع الأجواء الافتراضيّة! ومع كوننا لا ندري هذا الطّرف الثّاني من هو؟ ولا ندري هل هو صاحب أجندة وجاء ينفّذها علينا! أم هو صحفي بريء في فكره! أم من هو هذا الّذي معنا؟ فزيادة الآن على النّاس الّذين أصلًا من الممكن أن يكونوا متشائمين! فمن الممكن أن تُبتلي بصاحبة من أن نُصبح إلى أن نُمسي وهي متشائمة! متشائمة وفي كلّ شيء تقول: (انظري الآن كيف سيصير! فالآن لن نجد سيّارة! ولن نجد أحدًا يوصلنا! والآن ستجدين كذا وكذا)! ومن البلاء أنّه يزيد علينا ويزيد علينا بسببها! وكلّما دخلنا وخرجنا وجدنا كلامها هو الّذي يحدث! فتبدئين أنت بالشّكّ!

وهذا غير حين يكون واحد يقول: (توكّلنا على الله، ربّنا سييسّر لنا.) وإذا ما ضاقت تقول لكِ: (فما ضاقت إلّا والسّعة آتية!)؛ ففرق كبير بين أن تعيش مع إنسان متفائل، وإنسان متشائم! إنسانا كلّما رأى شيئًا أساء الظّن، وكلّما رأى فعلًا من أفعال الله قال: (انظر كيف!) وبين شخص قلبه منشرح لدين الله ولشرع الله، فتجد لسانه طيّبًا بذكر الله. أكيد هناك فرق كبير! فنحن كبارًا كنّا أو صغارًا فكلّنا على حدّ سواء نتأثّر بالصّحبة ولا أحد يرى نفسه أنّه أكبر من أن يتأثّر بالأصحاب أبدًا!

ونحن في مجلسنا هذا هناك من هي بين اثني عشر وخمسة عشر سنة، وبين من هي في الخمسين والسّتّين سنة؛ نحن كلّنا سواء في كوننا نتأثّر بالأصحاب، فكونك تشعرين أنّك أنت ما تتأثرِين؛ فهذه مشكلة!

اتركي هذا وفكّري جيّدًا: كلّما عشت مع أحد من أصحابك، بالذّات الأصحاب، أو نحن سنقول الأصحاب هم الجماعة عمومًا الّتي تحيط بكِ، يعني: ليس شرطًا الأصدقاء، لكن ممكن أن يكنّ صاحباتك في الوظيفة لو كنت موظّفة، أو جاراتك اللاّتي يخرجن ويدخلن معكِ، أو حتّى الّتي تكون تجاورك في السّيارة لأيّ سبب، فكلّ هؤلاء ممكن أن ينفثوا سُمّهم إن كانوا ذوي سمّ! وممكن أن يأتي طيبهم وخيرهم إن كانوا أهل خير، وقد نبّه لذلك نبيّنا -صلّى الله عليه وسلّم- فشَّبه هذا وهذا بما تعلمون.

فأنت ابقي حريصة على أن تكوني مع حامل المسك، وابذلي جهدك أن تكوني على غيرك حاملة المسك، وأنّه لو جاء في خاطرك من سوء الظّنّ في الله ما جاء، تردّيه عن نفسك وتردّيه عن لسانك، وليس كلّ شيء يدور في الفؤاد، ويوسوس به الشّيطان تُخرجينه.

ولذا فإنّه في هذه النّقطة الّتي هي: ابحث جيّدًا عن أصحابك، **نقول لأنفسنا:** دعنا نكن حذرات تمامًا من أن يكون الصّاحب المسيطر على أفكارنا هو الشّيطان ووسواسه! لأنّه أحيانًا يصير الإنسان معزولًا عن النّاس، ليسوا هم من يؤثّرون فيه؛ وإنّما الشّيطان هو من يطبخ فيه ويوسوس له؛ بحيث أنّه في النّهاية ما له صاحب إلّا الشّيطان! ويجعله

يرى الحياة سوداويّة! ويجعله لا يرى إلّا سوء الظّنّ في الأحداث الّتي تجري حوله!

- وهذا خطر عظيم أن تترك نفسك لوساوس الشّيطان!
- وخطر عظيم أنّك تكونين تعتقدين أنّ هذه الوساوس الّتي يوسوس بها الشّيطان إنّما هي صواب وحقّ وناتج تفكيرك السّليم!

فالمشكلة: أنّ الإنسان يصل أحيانًا في سوء الظّنّ في ربّه بأنّ: (هذا هو التّفكير السّليم لكن لا أحد يفهم!) ولذا فإنّك تجدينه صامتًا بينما يكون في الدّاخل يحصل ما يحصل من تفكير! وبعد ذلك لا تجد إلّا أنّه ينسحب من مجالس العلم! ينسحب من حفظ كتاب الله! ينسحب حتّى من الصّلاة في نهاية الأمر! وهذا كلّه بسبب أنّه استفرد به الشّيطان! ولذا فإنّ المعوّذتين تحتاجان منّا عناية شديدة جدًّا، وحرصًا على نفوسنا على أن لا يكون الصّاحب لنا لا شياطين الإنس! ولا شياطين الجنّ! -نعوذ بالله من الخذلان!-

على كلّ حال، بقي لنا النّوع الثّاني من سوء الظّنّ، فكلّ هذا الكلام في النّوع الأوّل، -وإن شاء الله- في الأسبوع القادم نبدأ في النّوع الثّاني من سوء الظّنّ. جزاكنّ الله خيرًا.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللّقاء التّاسع عشر

٢ جمادى الآخر ١٤٤٠

تابع باب ذكر سوء الظّنّ بالله

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرا طيّبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه أن يحفظ علينا هذه الاجتماعات، وأن يزيدنا من منّته، وأن يجعل لنا نصيب المخلصين لهذا العمل العظيم...اللّهمّ آمين.

كنّا بفضل الله في اللّقاءات الماضية، قد تناقشنا في هذا الموضوع المهمّ، وهو كبيرة سوء الظّنّ بالله، ورأينا: كيف أنّ هذه الكبيرة العظيمة تنطوي عليها القلوب، وقد لا يشعر الإنسان بها، ثمّ تكون سببا في أن تُرديه كما في سورة فصّلت: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾(١)؛ وهذا يفسّر لنا حديث النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، الّذي ورد في روايتين:

الرّواية الأولى: «الرَّجُلَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا»، يعني: النار. «غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا»(٢).

---

(١) فصلت: ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٤٩).

الرواية الثّانية: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»[١].

فالّذي يظهر للنّاس -لو نحن نريد تطبيق كبيرة سوء الظّنّ- قد يكون الّذي يظهر للنّاس العمل الصّالح، وهو في قلبه يحمل سوء الظّنّ بالله عزّ وجلّ! فيكون سوء الظّنّ كبيرة، النّاس لا تظهر لهم، لكن هذه هي الطّريقة الّتي يُفكّر بها في الله، وفي كمال الله، وفي أفعال الله، وفي أقدار الله!

معنى هذا: أنّه قد يكون العبد ظاهرًا يعمل بأعمال أهل الإيمان، أهل الجنّة، فيما يظهر للنّاس، وتكون في نفسه -والعياذ بالله- دسيسة تُرديه! وقد يكون ممّن يظهر أنّه يعمل بعمل أهل النّار -بالعكس- فذاك الأوّل كان يعمل بعمل أهل الجنّة وفي نفسه دسيسةٌ ترديه، والثّاني في الظّاهر أنّه يعمل بعمل أهل النّار، وفي نفسه خصيصةٌ ترقّيه، فالثّاني في نفسه خصيصة من حسن الظّنّ بالله، من الطّمع في الله، من رجاء الله، من النّدم على ما يفعل، من أعمال قلبيّة خصيصة، ماذا تفعل به؟ تُرقّيه.

فلذلك مرّة أخرى: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ»، ثمّ يكون في نفسه دسيسة مثل سوء الظّنّ، هذه من الدّسائس الّتي تكون في النّفس، وكلّ الكبائر القلبيّة الّتي سنمرّ عليها، تُعتبر من الدّسائس الّتي تُردي الإنسان، لكن خصوصًا سوء الظّنّ يُعتبر من أعظم الدّسائس، كونه ظنّ، والنّاس لا يفكّرون في ظنونهم، يظنّون ويمرّون.

(١) أخرجه البخاري (٣٩٩٢).

ولذلك الله -عزّ وجلّ- قال: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾، فيكون في نفسه دسيسة أردته، هذا الّذي يعمل بعمل أهل الجنّة فيما يظهر للنّاس، وما يكون بينه وبين الجنّة إلّا ذراعًا، فلم تبقَ سوى خطوات أخيرة، فيعمل بعمل أهل النّار، **في مقابل**: الثّاني تكون في نفسه خصيصة، يعني: يكون في نفسه من الخوف، من الرّجاء، يكون في نفسه من الطّمع في رحمة الله، يكون في نفسه ما يكون من طيّب الاعتقادات، فتقترب نهايته؛ ففي الحديث الثّاني: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَّلَهُ. قُلْتُ: وَكَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يُعَسِّلُهُ ؟» يسأله الصحابة، «قَالَ: يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ مَوْتِهِ»[1].

من هذا الّذي يأتي في آخر عمره ويصير مثل العسل، كأنّه «عَسَّلَهُ» من العسل، كأنّه يُوضع في العسل. من هذا الّذي يأتي في آخر عمره و«يُعَسِّلُهُ»؟ إلّا أن يكون في قلبه خصيصةٌ تُرقّيه.

وهكذا سيعود الكلام مرّة أخرى لحديث: «أَلا وَإِنَّ في الجَسدِ مُضغَةً: إذَا صلحتْ صلَحَ الجَسَدُ كُلُهُ، وإذَا فَسَدَتْ فسدَ الجسدُ كلهُ، ألا وهيَ القلبُ»[2]، فالعمل على القلب، وعلى ما يخرج من القلب، ومن أهمّ ما في القلب الظّنون الّتي من الممكن أن تخفى على كلّ النّاس، ومن الممكن أن أغشّ كلّ النّاس في ظنوني، وما أحد يعلم عن ظنوني الّتي أظنّها إلّا ربّ العالمين.

ونحن -كما مرّ معنا- لا نتكلّم عن الخطرات الّتي تمرّ ولا تستقرّ، والّتي لا تقبليها، والّتي تتمنّين أن تُلقي من السّماء، تخرّين من السّماء ولا أن تكون في نفسك! لا، ليس هذه الّتي نتكلّم عنها؛ وإنّما الّتي تستقرّ:

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني (٤٨١٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢).

⇐ **وهي**: طريقة تفكيرنا.

⇐ **وهي**: الّتي ننظر بها إلى أفعال الله.

⇐ **وهي**: الّتي نفسّر بها شرع الله.

ونحن -قد مرّ معنا المرّات الماضية- أنّ هذا سوء الظّنّ فيه نوعين أساسيّين، وتدخل تحته التّفاصيل.

النّوع الأوّل: هو نظرنا لله وأفعاله وشرعه، يعني: أفعاله القدريّة، وأفعاله الشّرعيّة؛ يأتي الشّرع لا يناسبك ولا يعجبك، تقولين: (هذا الشّرع ظلم المرأة! فعل بالمرأة كذا! هذا الشّرع ظلم النّاس! جعلهم يجب عليهم مثلًا أن يطيعوا وليّ الأمر) انتقاد للشّرع لأنّه ما وافق هواكِ، هذا انتقاد للربّ! هذا سوء ظنّ بالله!

من ينتقد شرع الله؛ يُسيء الظّنّ بالله! فأنت لا تعتقدي أنّ هذه التّيّارات الّتي تأتي تهبّ علينا، من أهل الشّرق والغرب، الباغضين لدين الله، الّذين قال الله -عزّ وجلّ- فيهم: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[(١)].

لا تعتقدي أنّ مثل هذه التّيّارات الّتي تأتي وتُشكّك في حكمة الله (في الميراث، في المرأة، وفي أحكامها)؛ حين تمرّ علينا لا تؤثّر في نفوس النّاس! بل تؤثّر في نفوس النّاس حتّى لو كانوا أتقياء! يشعرون بنوع ضعف! يشعر بأنّ في الميراث هناك نوع ظلم! مجرّد بقاء هذه الآثار في النّفس ولا تقولين: (أعوذ

---

(١) البقرة ١٢٠.

بالله! سبحان الله! الله أكبر!)، على أن أظنّ فيه أنّ شرعه أو بعض شرعه فيه ما يُعاب؛ وهذا نفسه في الأقدار. وهذان النّوعان ناقشناها وفهمناها جيّدًا في اللّقاءات الماضية، ونعلم أنّ مثل هذا -والله أعلم- ما يتوقّف فيه النّقاش لابدّ أن نكرّره دائمًا.

المهمّ: أنّ الّذي يمرّ عليك من قدر، لابدّ أن تعرفي أنّه حتّى لو ما وافق هواك أنّ فيه الحكمة التّامّة، علم من علم وجهل من جهل، وحين تزدادين إيمانًا ويقينًا، وأحيانًا تجربة أيضًا في الحياة، يعني: تنجلي عن عينيك الغشاوة، وترين: (ما أحكم الله فيما قدَّر علي!)، وإذا زدت علمًا، وفهمًا، ويقينًا، ستقولين: (ما أحكم الله فيما شرَّع في شرعه!)؛ بل ستقفين -وهذا أعظم موقف يقفه العبد- ستقفين أمام الدّين ومحاسنه فيكون أهمّ سبب ليقينه وثباته، يعني: من أهمّ أسباب ثبات الإنسان على دينه: ما يقع في قلبه من الشّعور بمحاسن الدّين، وأنّه في كلّ باب الشّرع والدّين أتى بأحسن ما يكون؛ ولا يمكن لأحد عاقل بعيدًا عن الهوى والشّهوات أن يأتي لشيء أمر الله به، ويقول: (ليته ما أمر) ولا يمكن لأحد عاقل بعيدًا عن الشّهوات أن يأتي لشيء نهى الله عنه، ويقول: (يا ليته ما نهى) بل كلّ ما أمر الله به، فله حكم الكمال في نفوسنا الّتي سنلقى بها ربّنا، وكلّ ما نهى الله -عزّ وجلّ- عنه، فيه حكم الكمال في نفوسنا الّتي سنلقى الله بها. فهو كامل، كامل، سواء ظننّا ذلك أو لم نظنّ، لكن النّجاة لك أنّه لو مرّ على خاطرك شيءٌ من الشّكّ:

أوّلًا: تستعيذين بالله من الشّيطان الرّجيم.

ثانيًا: اطلبي من ربّك اليقين.

ألم يطلبه إبراهيم؟ إبراهيم -عليه السّلام- طلب اليقين، ألم يقل: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾[1]، فهو كان مؤمنًا، لكن هذا الطّلب زيادة اليقين؛ فالعبد يطلب زيادة اليقين؛ وأهمّ يقين يوصلك إلى الثّبات، أنّك تنظرين إلى كلّ حكم فتري فيه من المحاسن ما ينفذ تفكيرك ولا تنفذ محاسنه.

فكم للدّين من محاسن لا يشعر بها إلّا الّذي خرج من تحت ظلّها! نسأل الله -عزّ وجلّ- أن يحفظ علينا نعمائه، ويزيدنا قبولًا ويقينًا، ويزيدنا حسن ظنّ به سبحانه وتعالى.

مدخل إلى بيان النّوع الثّاني من سوء الظّنّ: "النّوع الأهمّ"

يأتي الجزء الثّاني من حسن الظّنّ، سيكون هذا حول **"نظرنا إلى الإسلام ونصرته"**، يعني: من أبواب سوء الظّنّ -الّتي عكسها طبعًا حسن الظّنّ، والآن نتكلّم عن سوء الظّنّ- أن يظنّ العبد أنّه إذا استقام على الدّين لابدّ أن يخسر الدّنيا! يعني: إمّا الدّين وإمّا الدّنيا! نفس هذا سوء الظّنّ نكبّر دائرته، **معناها**: يظنّ أنّ الله لا ينصر الدّين في الدّنيا! ولا ينصر أهله في الدّنيا! يعني:

المعنى الأوّل: قاعدة المسألة: أنّ الإنسان يظنّ أنّه لو استقام على الدّين معناه لا توجد دنيا!

المعنى الثّاني: الأمر الثّاني أو الّذي سيترتّب ويتوسّع، معناه: أنّ المسلمين لا يرون النّصر في الدّنيا! لا نصر لهم في الدّنيا! وهذا ينتشر ويزيد في أزمنة مثل أزمنتنا، يكون الدّين أو أهله أو الإسلام وأهله -كما يعبرون- في ذيل الأمم ولا يكون لهم العزّة، يكونون في الحالة المجملة في حال ذُلٍّ، فحين يحصل هذا

---

(١) البقرة: ٢٦٠.

يأتي سوء الظّنّ بالله! وليُعلم أنّ هذا سوء الظّنّ بالله عند كثير ممّن فُتنوا، هو أساس ارتدادهم عن الدّين، وأساس التحاق أحياء من المسلمين بالمشركين!

وقد قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي»، يعني: يقول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مِنْ أُمَّتِي»، يعني: من أمّته التّابعة، «حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ»[1]، غربًا كان أو شرقًا، وهذا من علامات السّاعة! وأصل هذا المعنى أن يجد أنّ دينه لا يسبّب له الاعتزاز، وأنّ أهل دينه متخلفون -بالتّعبير المعاصر- وأنّ غيرهم متقدّمون! ويتّهم الدّين بأنّه هو سبب التّخلّف! أو بتفكير آخر يقول: (لو أنا أريد أن أستقيم على الدّين لابدّ أن أُصبح هكذا متخلّفًا)! يعني: الدّين هو التّخلّف! أتحرّر من الدّين من أجل أن أخرج من التّخلّف! هذا هو المقصد بصور مختلفة ومتعدّدة لكن هذه نتيجة الأمر! وهذا من أعظم سوء الظّنّ بالله أن يظنّ ظانّ أنّ الله لا ينصر دينه!

هنا في الكرّاسة ستجدن مناقشة الآيات الّتي تركناها. نحن بدأنا بفصّلت مباشرةً، وتركنا مناقشة آيتين: آية الفتح، وآية آل عمران؛ الآن آية الفتح، وآية آل عمران، تخصّ هذا النوع الّذي هو النّوع الثّاني من سوء الظّنّ.

أنا ما أظنّ أنّنا اليوم ننتهي من النوع الثّاني، سيمتدّ بنا النّقاش، لكن أريد أن أتأكّد أنّكنّ قد تصوّرتنّ النّوعين في سوء الظّنّ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٣٩).

النّوع الأوّل: هذا أنت وحدك، لا تفكّرين لا في الإسلام، ولا في المسلمين، ولا في أيّ شيء؛ وإنّما تفكّرين في أقدارك الّتي تخصّك، وتُسيئين الظّنّ في ربّنا، تنظرين إلى بعض صفات الله في نفسك، وتقولين -مثل ما مرّ معنا- في سورة فصلت، أنّهم ظنّوا: ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا﴾[1]! ممّا يعملون! فأساؤوا العمل، وتصرّفوا بطريقة غير لائقة! أو تنظرين إلى الأحكام الشّرعيّة وتسيئين الظّنّ! فدائمًا تصير هذه المسألة في مواقف، أنت أو أحبابك، أختك، إخوانك، مسألة تتّصل بالميراث قُسِّمَ بطريقة، قالوا لكِ: (هذا حكم الشّرع، فأنت محجوبة في الميراث)، فتسيئين الظّنّ في حكم الله! وهذا غالبًا يكون متّصلًا بنفسك!

إذًا: هذا النّوع الأوّل في سوء الظّنّ، الّذي هو سوء الظّنّ في شرعه وفي أقداره؛ وهذا غالبًا يخصّ الإنسان، ويكون نتيجة فتنة تُلقى عليه، أو نتيجة فتنة مرّ هو بها، أو يأتي أحد يقول له لماذا الشّرّ موجود في العالم؟ وهذه الكلمة هي أصل إلحاد الملحدين: (لماذا الشرّ موجود أصلًا في العالم!) فيشكّ هو ويُسيء الظّنّ في ربّ العالمين! فهذا نوع.

النّوع الثّاني: يظنّ أنّ الله لا ينصر المسلمين! يظنّ أنّ الدّنيا ليست مكانًا لنصرة المسلمين! وهذا ينتشر في الأزمنة الّتي تحصل فيها هزيمة للمسلمين. وقبل أن ندخل في تفاصيل هذا الأمر: لابدّ أن تفهموا ما هو السّبب لسوء الظّنّ هذا. ما السّبب؟ **السّبب الأساس**: أنّ العزّة من أهمّ القيم الإنسانيّة؛ يعني: الإنسان يحبّ أن يكون عزيزًا، لا يُحبّ أن يكون ذليلًا؛ فحين يجد أنّ

---

(١) فصلت: ٢٢.

الدّين سيجعله ذليلًا، ذليلًا بأي مقياس الآن؟ بالمقياس الدّنيوي، يصير النّاس متقدّمون وهو في الوراء! وهذا في تفكيره! فيرُدّ الدّين بأنّه هو الّذي يسبّب له الذّلّ! بينما هو في الحقيقة ما فهم الأمر، ما فطنه، ما عرف حكمة الله، أساء الظّنّ بالله لذلك وصل إلى هذه النّتيجة!

التّعليق على دليل موطن سورة آل عمران (١٥٤)

بسم الله،سأقرأ الآية. هذا الدّليل الأوّل في سوء الظّنّ، الّذي عندكنّ في الكتاب الأصلي، وهو سيكون على النّوعِ الثّاني، نحن من سمّيناه النّوع الثّاني، قسّمناه وجعلناه أوّلا وثان؛ لأنّ هذا الثّاني أصعب وأكثر دقّة في بيانه؛ بينما الشّيخ رأى أنّ هذا هو الأوّل، وهذا هو المهمّ.

آل عمران الآية (١٥٤)، أوّل الكلام. سنقرأ الآية الّتي هي جزء من المتن، وبعد ذلك سنقرأ السّياق ونفهم القضيّة. نفهم هذه الآية الّتي فيها الخبر عن سوء الظّنّ في الله أتت في أيّ سياق!

(**باب ذكر سوء الظن بالله**: وقولِ الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[1].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا

(١) آل عمران: ١٥٤.

أَصَابَكُمْۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(١).

واضحة جدًّا هذه الأحداث الّتي حصلت في غزوة أحد، وما حصل للمسلمين من فشل، وسبب الفشل كما هو مشهور جدًّا: تخلّف الرّماة، يعني: بسبب وقع منهم؛ ولذلك الله -عزّ وجلّ- قال: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾، إشارة إلى الإرادة الّتي حصلت وقتها، عصوا، صحيح وقعت منهم المعصية، لكن هم باقون على إيمانهم. الآن القضيّة ليست هنا؛ القضيّة لمّا حصلت الهزيمة، وهذا النّوع من الظّنون لا يظهر إلّا حين تحصل الهزيمة وليس في وقت العزّة.

سنرى الآن: بالآيات كيف عامل الله المؤمنين؟ وكيف خرج هذا الصّنف الثّاني السّيّئ الظّنّ الّذين عُرف اسمهم الآن؟ حين قرأنا الآيات بدأنا نتصوّر مَنْ مِنَ الممكن أن يسيء الظّنّ في الله ويظنّ أن الله لا ينصر دينه. فنحن ما عندنا إلّا ثلاثة أصناف من النّاس كما في أوّل سورة البقرة، النّاس لا يمكن أن يخرجوا عن الثّلاثة أصناف:

١) المؤمنون.

---

(١) آل عمران: ١٥٢_١٥٤.

٢) الكافرون.

٣) المنافقون.

فمن هؤلاء الّذين مِنَ الممكن أن يسيئوا الظّنّ بالله، ويظنّون أنّه لا ينصر دينه؟ وإذا حصلت الهزيمة تكلّموا على ربّ العالمين بما كان في صدورهم؟ أكيد أنّهم ليسوا بمؤمنين؛ يعني: المؤمنون ممكن أن يخطؤوا مثل: الرّماة أخطأوا، لكن لا يسيئون الظّنّ في ربّهم، يخطؤون ويعرفون أنّه خطأهم، والّذي ما وقع منه الخطأ يلوم الّذي وقع منه الخطأ، لكن لا يسيء الظّنّ في ربّه.

لكن المشكلة الآن في مَنْ؟ في المنافقين. سنمرّ جملة، جملة ونتصوّر.

لو بدأنا بالآية (١٥٢)، الله -عزّ وجلّ- أخبر الله أنّهم فشلوا وتنازعوا في الأمر وعصوا، وأخبر -سبحانه وتعالى- أنّه: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾، يعني: الآن وقعت الهزيمة، وهذا لأجل أن يقع الابتلاء، والعفو من الله -عزّ وجلّ- على المؤمنين يغمرهم في كلّ شأن حتّى مع معصيتهم.

وحكى ربّنا ماذا حصل منهم في موقفهم هذا؟ ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾، الغمّ الأساسي، هو ما حصل من الكرّ عليهم مرّة أخرى، والغمّ الّذي هو أعظم أنّهم سمعوا بموت الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- فكان الغمّ الثّاني أعظم بكثير من الغمّ الأوّل؛ لكن عالجهم الله بالغمّ الثّاني، وما ألطف الله! لمّا كشف الغمّ الثّاني، وعرفوا حقيقة أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- لم يمت، وأنّ الله

حفظه، هان عليهم الهمّ الأوّل، وقالوا: (مادام الثّاني ليس موجودًا كلّ شيء هيّن في الدّنيا)، فسبحان اللّطيف الخبير بنفوس عباده وكيف يطيّبها!

قال عزّ وجلّ: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُواْ﴾، يعني: الغمّ الثّاني أتى من أجل ماذا؟ ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، ترين تمام لطف الله بهم، وتمام رحمته بهم. وانظري إلى رحمته، وانظري إلى رحمة الوالدّين، لتعرفي: أنّ الوالدين مهما كان في قلوبهم رحمة، لا يمكن أن يرحموا أبنائهم أكثر من رحمة الله؛ لأنّنا في أولادنا حين يخطئ واحد فيهم ويقهرك، فتقولين له: (لا! لا!)، ويخطئ، وبعد ذلك يدفع ثمن خطأه، فتقولين له: (تستحقّ! تستحقّ الّذي فعلته)! **في مقابل**: أنّ الله يطيّب نفوسهم على ما وقعوا من خطأ، فيقول لهم: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾، فيُزيل عنهم أثر حتّى الحزن! لا يخرجون من المعركة وهم حزينون! لا يخرجون من ذاك النّهار وهم حزينون! يزول عنهم حتّى حزن ذاك النّهار! -طبعًا- حمراء الأسد بعدها تزيد الأمر تطييبًا لنفوسهم؛ لأنّهم بعدما يخرجون من أحد، ويصلّي النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- بهم العشاء والفجر، يأمرهم أن يخرجوا إلى حمراء الأسد، فيخرجون بجراحهم وآلامهم، ويصلون إلى حمراء الأسد فماذا يكون من العدو؟ هذه الآية الّتي نزلت في آل عمران الّتي فيها أنّ النّاس قالوا لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[1]، ماذا فعل لهم حين قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾؟ ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾.

---

(١) آل عمران: ١٧٣.

يعني: انقلبت المسألة بأنّ العدو حين عرف أنّهم اجتمعوا له هرب وعاد! لأنّ قريش ماذا قرّرت؟ قالوا: (لماذا ما قضينا عليهم كلّهم؟ فإذن دعنا نرجع لهم)، فأتت للنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- الأخبار: (أنّهم مجتمعون لكي يقضوا عليكم)، فأمرهم النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- في فجر ذاك اليوم، يعني: اليوم الّذي قبله كان القتال، في فجر اليوم التّالي هم لم يعودوا بعد إلى بيوتهم، النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بات معهم في المسجد، وخرجوا في ذاك الفجر مستقبلين عدوّهم، فلمّا سمع العدوّ أنّ هؤلاء أتوا يستقبلونهم! **معناه**: أنّهم ظنّوا أنّه جُمِعَ لهم! فهربوا منه! فطيّب الله خاطرهم في أقلّ من يوم وليلة بتطييبين:

بهذا التّطييب الأوّل حين أصابهم ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾.

والتّطييب الثّاني في حمراء الأسد.

فما ألطف الله بعباده! لكن كان لابدّ أنّ يأخذوا هذا الدّرس، وأنّه أوّل ما تخالف النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لابدّ أن يحصل لك ذلك! فكانوا سيظنّون أنّهم منصورون دائمًا! وأنّهم لا تأتي السّنن عليهم. فهناك من الدّروس في غزوة أحد، والّذي يدرس سورة آل عمران، يرى فيها من الأسرار ما تُربّي أمّة، لكن نسأل الله أن يفقّهنا في القرآن.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ﴾، كذلك إلى هذا اللطف! تخيّلي: هم الآن في المعركة، حرب، ماذا يُتوقع في أعصاب الإنسان؟ سيكون في غايتها من الخوف، والقوّة، وإفراز الهرمونات، وحتّى الّذي يريد أن يتشتّت من كثرة الخوف سيكون مشدودًا! أين مكان النّوم في موقف مثل هذا؟! أبدًا! ولا في

تفكير أيّ أحد! فينزل عليهم النّوم ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾! لدرجة أنّ الصّحابة حين يصفون هذا الموقف، يقولون إنّهم حين يمسكون بالسّيف يريدون أن يتمكّنوا منه؛ لأجل أن يقاتلوا عدوّهم، فيسقط منهم! ويسقط من أيديهم! نزل عليهم كلّهم التّسكين، الهدوء، النّوم هذا الّذي لا يأتي إلّا وأنت مرتاح! يعني: متى تُغمضين عينيك؟ فأنت حين تكونين قلقة عل أتفه الأمور، عينك تبقى مفتوحة! مهما كان بدنك متعبًا لكن عينك لا تنام! فكيف وهم في ساحة الوغى مع عدوّهم؟ الّذين هم الآن في حال الله يعلم بها! ويكون حالهم أنّهم تغفى أعينهم، إلّا من التّوكلّ على الله، إلّا من الإيمان بالله، إلّا أنّ الله ينزّل عليهم من لطفه ورحمته ما يجعلهم في هذه الحال. هذا كلّه للمؤمنين، وفيها من الأسرار ما فيها، وأنتنّ لو قرأتنّ التّفسير ستتمتّعن جدًّا؛ لأنّ الشّيخ يصف الأمر بطريقة لطيفة.

المهمّ: أنّ هؤلاء المؤمنون، يأتيهم النّعاس ﴿يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾، يعني: نُعاسًا، ينعسون ويغمضون عيونهم فيأخذون راحة جميلة. والّذي يذهب إلى الحجّ ويقوم بجهد، وبعد ذلك يركب القطار أو السّيّارة ويغمض عينه قليلًا في وسط كلّ هذا التّعب، فهذا النّوم القليل، الغفوة، تصحّيه، وتجعله قويًّا من نعمة الله. فلا تتصوريه أعظم من ذلك. هذا النّوم القليل هدّأ نفوسهم، وأذهب عنهم التّعب، وأعاد إليهم صحّتهم النّفسيّة، وصحّتهم البدنيّة.

هؤلاء مَنْ؟ المؤمنون الّذين عاملهم ربّ العالمين بألطافه، وهم على الله متوكلّون، وبه واثقون، محسنون الظّنّ بربّهم أنّه لا يخذلهم.

تعالي إلى الطّائفة الثّانية الآن: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

وانظري: فإنّ هذا هو أهمّ شيء في الموضوع: أنّك تعرفين أنّ أهمّ صفة في المنافقين: (أنا ومن بعدي الطّوفان! أنا فقط! لا أمّة! لا دين! لا صحبة! لا قيم! ليس مهم فقط أنا! وفي كلّ مكان أنا ممكن أن أستفيد أذهب! ما أستفيد أهرب!) وعلى ذلك تكون هذه الصّفة الّتي هي: الدّنيويّة الّتي تظهر في الأنانيّة، يعني: هو أناني من جهة أنّه يريد أن يكسب الدّنيا وليس الأناني الّذي يريد أن يحافظ على وقته، وليس الأناني الّذي يريد أن يأخذ الحسنات؛ لا وإنّما أناني يريد الدّنيا، فقط الدّنيا!

هؤلاء الطّائفة ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾! ما وصفهم؟ ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، هذا شاهدنا! ماذا يقولون! ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾.

انظري: في الصّفحة ٣، هناك شرح: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾.

(وهذا استفهام إنكاري، أي: ما لنا من الأمر -أي: النصر والظهور- شيء، فأساؤوا الظن بربهم وبدينه ونبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفيصلة والقاضية على دين الله)[١].

إذًا: هذا هو سوء الظّنّ باختصار؛ ما حال سيئ الظّنّ الآن بالله في مثل هذا الموقف؟ أنّه يأتي حدث ويقضي على دين الله، وينتهي دين الله! تأتي فتنة، أو قوّة، أو الّذي يكون، ويظنّون أنّ هذه الهزيمة، أو هذه الفتنة، أو هذه الحال؛ هي الفيصلة والقاضية على دين الله. وتكون النّتيجة معناها: أنّ دين الله لا ينتصر! وأنّ أهله يذهبون! وأنّ كلّ هذا الّذي بُذل من أجله الجهد

(١) تيسير الكريم الرحمن _ السعدي (١٣٧٦ هـ) _ تفسير الآية (١٥٤) سورة آل عمران.

وَهْمٌ! وأنّ الأمر تابع فقط للسّنن الكونيّة (الأقوى هو الّذي ينتصر والأضعف هو الّذي يُهزم)! وليس لأنّ الله ينصر دينه! ليس لأنّ الله يحفظ دينه! ليس لأنّه لابدّ لدين الله من الانتصار! ليس هذا كلّه؛ إنّما يعتقد سيّئوا الظّنّ أنّ الله يرسل رسولًا، يبذل الرّسول كلّ السّنين الّتي مضت في الدّعوة؛ ويجتمع عليه الخلق، ويُقتل من أوّل الدعوة من يُقتل في سبيل هذه الدّعوة أفرادًا كانوا، أو مثلًا في غزوة بدر، أو غيره؛ ثمّ بعد هذا كلّه يحصل موقف ويُقضى على الدّين وينتهي تمامًا! **فهذا معناه**: أنّ الله يرسل الرّسول ثمّ لا ينصره! أنّ الله يجعل الدّين دينه ثمّ لا ينصر دينه الّذي هو منسوب له!

وهذا هو السّؤال الّذي دائمًا يأتي على لسان الشّباب الّذين اغترّوا به، يأتي السّؤال يقول: (مادمنا على الحقّ، لماذا لم ننصر!) فهو مُتَصوّر أنّه المفترض أن نكون دائمًا منتصرين. وليس لأنّه يوم أن تتمسّك أنت بالدّين؛ وتنصره فينصرك الله؛ وحين يكون مضى زمن والنّاس تخلّوا عن دينهم، وجاءت الفتن بعد الفتن، لأجل أن تعود النّصرة لابدّ أن يعود الجميع إلى ربّ العالمين، فتعود النّصرة لهم.

وقد ظهرت هذه السّنن في كتاب الله، فأظهرها سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1]، القضيّة ليست مجرّد أنّك تدّعي الإسلام فيكون مقابل هذا أنّك تُنْصَرُ لمجرّد اتّصالك به!

المهمّ الآن: سوء الظّنّ هنا ظهر بأيّ صورة؟ بأنّهم يظنّون أنّ دين الله يذهب، وأنّ الله لا ينصر دينه! يشبه هذا في كلّ زمان، من يظنّ أنّ الفتنة الّتي

(١) محمد: ٧.

جاءته في هذا الزّمان، أو جاءت للمسلمين، ستُذهبهم! وتُذهب الإسلام! وينتهي الإسلام!

ودائما يخيفك الجهلة، ويخاف الجاهل الّذي لا يعرف الله! يخيفك الجهلة: (أنّه بعد قليل لن تجدي أحدًا من أهل الإسلام! ولن تجدي من مظاهره شيئًا! لا من مظاهر الحجاب! ولا من مظاهر الدّين!) فكلّ هذا في نظرهم أنّه يتفكّك!

وأنت لو نظرت لخريطة العالم، وليس خريطة ديار المسلمين: تجدين أهل الباطل يضعون أيديهم هنا لأجل أن يخرجوا النّاس من الإسلام، فيخرج لهم الإسلام في وسط ديارهم! فكلّما وضعوا يدهم هنا يخرج هنا! يحاربون الحجاب من هنا فيزداد التّمسّك من هنا! وهكذا! **إلى درجة فيما يُذكر**: أنّه في معارض الكتاب في الدّول الإسلاميّة، دائمًا يُتوقَّع بأن يكون البيع الأقوى لكتب الفلسفة! وكلّما انتهوا من معرض وأجروا إحصائيّة، يجدون بأنّه ليس هناك ما هو أعلى من بيع الكتب المتّصلة بالدّين! في داخل بلادنا هذا أمر معروف، لكن حتّى في خارج بلادنا! وهذه إشارة إلى أنّكم تدورون وتدورون ويبقى دين الله منصورًا. بأيّ يد؟! اليد الّتي صنعت وأخرجت هذه المطابع لأجل أن تُخرج الباطل، رغمًا عنهم أخرجوا الحقّ لأنّه سيفيدهم ماليًّا! يعني: لن يقولوا: (لا نريد أن نبيع لكم مطابعًا!)؛ لا! وإنّما باعوا مطابعًا! فبهذه اليد الّتي بيعت بها المطابع، بهذه اليد انتشر الحقّ!

وفيما يُذكَر: أنّهم كانوا حريصين، على أنّ كتبًا مثل كتب ابن تيمية لا تنتشر، فنفس المكان الّذي يمنع كتب ابن تيمية، يبيع كتب ابن كثير، "تفسير ابن كثير"، وابن كثير ما هو إلّا تلميذ ابن تيمية!

يقول لك: (أيّ شيء يتّصل بالتّوحيد لا أبيعه! والأسماء اللاّمعة: ابن عثيمين، وابن باز، لا، فهؤلاء رمز عندنا في التّشدد)! ويقوم ببيع كتب السّعدي! السّعدي الّذي هو شيخ ابن عثيمين! ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1]! فالثّقة الّتي في النّفس، وحسن الظّنّ بربّ العالمين، تجعل العبد ينظر لمثل هذه الأمور الدّقيقة، الّتي من هنا وهنا، ويكون على ثقة أنّه لا يمكن أن يزول الدّين، لكن هذا أوّلًا وقبل أيّ شيء امتحان لأهله، حين يصير أهله هؤلاء ينظرون إلى اجتماع الأعداء عليهم، وينظرون أنّه بدون جهد لهم ينتشر الإسلام، يعرفون أنّ هذا الدّين منتصر بهم أو بغيرهم! **وهذا الّذي لابدّ أن نحفظه جيّدًا**: فإنّ دين الله منتصر بنا أو بغيرنا، والله مستغنٍ عنّا، ونحن الّذين محتاجون للدّين.

فالّذي يقول لك: (أنا خائف على الدّين! وخائف يزول الدّين!)! **سنقول له**: (أحسن الظّنّ بالله، والله حافظ دينه، أنت فقط خف على دينك أنت! أهمّ شيء أن يُختم لك أنت بخير! أهمّ شيء أن تُحافظ على دينك الّذي يخصّك! والله حافظ دينه وناصره، فالدّين منتصر بنا أو بغيرنا، الشّرف لنا أن نكون في ركب من نصر هذا الدّين). لو قرئتنّ التّفسير ستظهر لكنّ تفاصيل أكثر،

---

(١) الأنفال: ٣٠.

فقط المهمّ: أنّ المسألة في الأصل ظاهرة، فهكذا الآن الأمر ظاهر في الدّليل الأوّل.

التّعليق على دليل موطن سورة الفتح (٦)

سيأتينا هذا النّوع أيضًا في سورة الفتح، سنقرأ هذا الدّليل الثّاني على هذا النّوع الّذي نتكلّم عنه:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[1].

هذا نفس النّوع في سورة الفتح، والخبر عن أنّ الله -عزّ وجلّ- يُنزل السّكينة في قلوب المؤمنين، فتنزل السّكينة في الأزمات، في الحروب، في القتال، في الفتن، في أيّ صورة من الصّور الّتي يحصل فيها عند المسلمين اهتزاز في بقاء دينهم وثباته؛ ينزّل عليهم السّكينة ويطمئنّون أنّه لا يمكن أن يزول الدّين، فيزدادوا بذلك إيمانًا **والنّتيجة**: أنّهم سيدخلون جنّات عدن لأنّهم محسنون الظّنّ بالرّبّ، ومن ثمّ فإنّهم مُحسنون العمل، **في مقابل**: أنّ ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾، مجتمعون في عقيدة واحدة؛

---

(١) الفتح: ٤_٦.

ولذلك فإنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النار، مجتمعين مع الكفّار وأسوأ منهم حالًا:

- **مجتمعين مع الكفّار**: لاشتراكهم في العقيدة!
- **أسوء منهم حالًا**: لأنّهم زادوا بخداع المؤمنين!

يهمّنا في هذا الموطن أن نعرف: هؤلاء ما عقيدتهم؟ قال الله عزّ وجلّ: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾، **معناها**: أنّ أهمّ شيء في عقيدتهم أنّهم يظنّون ﴿بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ **في مقابل**: المؤمنين يظنّون بالله حسن الظّنّ، يحسنون الظّنّ في الله.

دعنا نقرأ الآن كلام الشّيخ السّعدي في شرحها:

قال السّعدي: (وأما المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات، فإن الله يعذبهم بذلك، ويريهم ما يسوؤهم؛ حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله الظن السوء، أنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، وأن أهل الباطل، ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا، ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بما اقترفوه من المحادة لله ولرسوله، ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: أبعدهم وأقصاهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾)[١].

معنى ذلك: ما ظنّ المنافقين والمنافقات؟ يظنّون أنّ الله لا ينصر دينه! أنّ الله لا يُعلي كلّمته! **وفي مقابل ذلك**: أنّ أهل الباطل ستكون لهم الدّائرة على

(١) تيسير الكريم الرحمن _ السعدي (١٣٧٦ هـ) _ تفسير الآية (٦) سورة الفتح.

أهل الحقّ! يعني: أنت تقولين: (الآن الدّائرة لأهل الحقّ على أهل الباطل!)، نعم تدور الدّائرة، لكن لا تسقرّ لأهل الباطل على أهل الحق، فهناك إدالة، يعني: يتبادلون لكن هناك استقرار، لا تظنّي بأن يستقرّ أهل الباطل على أهل الحقّ.

وقارني الآن: قارني زمن الدّولة الإسلاميّة الطّويل، بزمن أهل الكفر! **وانظري**: كم عاشت الدّولة الإسلاميّة قويّة؟ أهل الباطل ما كانوا مُدلّين عليهم، ولا كانوا مرتفعين عليهم، ثمّ إن مائة سنة أو مائتين سنة في عمر الزمان لا شيء! يعني: حين تكون الدّولة العثمانية بقيت ثمانمائة عامًا، هي الّتي لها اليد العليا، يأتي بعدها مائة أو مائتين -نحن الآن في مائة لكن داخلين على المائتين- وهذا الحال سيكون ليس إدالة تامّة؛ إنّما هذا تداول، والسّبب معروف! يعني: هل النّاس كانوا متمسّكين بدينهم فأدال الله عليهم العدوّ! لا! النّاس ضَعُف دينهم فأدال الله عليهم العدوّ، فإذا تمسّكوا بدينهم، أعادهم بألطف ما يكون إلى مكانهم.

فالمقصد: أنّ أهل النّفاق حين يرون إدالة السّاعة -فهذه كلّها في الزّمان ساعة- يظنّون أنّ الدّين ينتهي! ويظنّون أنّ هذه الحال ستبقى دائمًا ولن يكون هناك تبديل!

سنقرأ كلام ابن كثير في شرح الآية أيضًا:

قال ابن كثير: (﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أَيْ: يَتَّهِمُونَ اللَّهَ فِي حُكْمِهِ، وَيَظُنُّونَ بِالرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ أَنْ يُقْتَلُوا وَيَذْهَبُوا بِالْكُلِّيَّةِ).

هذا الّذي يعتقدونه؛ نفس الاعتقاد هذا الّذي في زمن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، هو الّذي يبقى إلى ما بعد ذلك: يظنّون بالرّسول، وأصحاب الرّسول أنّهم يذهبون! وبعد ذلك يظنّون أنّه يأتي زمان يخلوا العالم من الإسلام! والعالم لا يخلوا من الإسلام إلّا حين تقترب السّاعة، ما تقوم السّاعة إلّا على شرار الخلق، هذا الّذي ينتهي فيه الإسلام، لكن أين أنت وأين قيام السّاعة! السّاعة أمامها علامات كثيرة، فلا يغرّنّك كلام المتكلّمين: السّاعة ما تقوم إلّا حين يأتي على النّاس حال يقول الرّجل فيهم: (كنت أسمع والدي يقول: «اللَّهُ، اللَّهُ»[1]! حتّى (لا إله إلّا الله) لا يعرفها! أين هذه الحالة الّتي نحن فيها! أين نحن! ما تقوم السّاعة حتّى تكون العوافي والوحوش هي الّتي تكون في مكّة والمدينة! مكّة والمدينة هذه ما يكون فيها إلّا العوافي والوحوش، ما يكون فيها الآدميّون! أين نحن من ذاك الزّمان! أين! مكّة والمدينة لا تستطيعِي أن تضعِي رجلك فيها من كثرة النّاس! -الحمد الله- الله يزيدها بركةً، وييسّر على الحجّاج الوصول والذّهاب والعودة، ويحفظ علينا هذا الأمن والأمان.

فهذا كلّه سوء ظنّ حين تشعرين بأنّ الإسلام سيذهب وينتهي! أو قد أتى آخر الزّمان! لا ليس هكذا فكلّ شيء له علاماته، فتنزيل بعض النّصوص على الواقع، أحيانًا كثيرة يكون تنزيلًا غير صحيح! فهناك علامات كثيرة، أين نحن والدّجال! ويأجوج ومأجوج! والمسيح! أين! فالأمر بعيد!

فنحن في زمان كلّنا رجاء أنّ ما نفعله من اجتهاد خاصّ في الطّاعة، واجتهاد آخر بنشر العلم، أن يكون سببًا لعودة شمس الإسلام على جميع العالم.

(١) أخرجه مسلم (٢٤٣).

والّذي يستهين بنفسه ما عرف ربّنا! فإنّ الله -عزّ وجلّ- يرزق الخلق أسبابًا، من هنا، ومن هنا، حتّى تشرق الشّمس؛ فلا تستهيني بنفسك، ولا تستهيني بنشر العلم؛ واليوم تيسّرت سُبل العلم على النّاس -والحمد الله- انتشرت، الله يزيدها وييسّرها، ويصل إليهم الحقّ ويُزيل الباطل.

وأهمّ ما تعلمنه من علامات نُصرة الدّين -من أجل أن نأتي على الجرح ونحلّه- التّوحيد. إذا انتشر التّوحيد وزال الشّرك من العالم فليبشر المسلمون! لكن الحال الّتي نعيشها في العالم الإسلامي عمومًا، فهنا عندهم مزار ويزورونه ويعبدونه من دون الله! وهنا مزار! وهنا السّيّد كذا! وهنا السّيّد كذا! وهنا النّبيّ كذا! وهنا الصّحابي كذا! وهنا يذبحون لغير الله! وهنا يطوفون لغير الله! فإنّ بقاء هذا في العالم الإسلامي يؤخّر النّصر!

هكذا نحن كأشخاص ضعيفون! نحن ماذا لدينا لأجل أن ننصر الدّين! إذا أحسنا الظّنّ بالله حُسنًا تامًا تأكّدنا بأنّ الله ينصر الدّين، فإذا حصّلتِ هذا الجزء المهمّ الّذي لو قابلتِ ربّنا به تكونِين من أهل الإيمان، الله يرزقنا هذا الحسن الظّنّ. بقي أنّك تبذلِين جهدك في نشر التّوحيد، فالّذي تحت يدك من نشر التّوحيد:

أوّلًا: أنّك تبقين لاهجة:

- ✓ أن تبقي أنت من أهل التّوحيد.
- ✓ وأن تكون ذرّيّتك من أهل التّوحيد.
- ✓ وأن يُنشر التّوحيد على بلاد المسلمين.

ثمّ يأتي الأمر الثّاني: نتكلّم عن بلادنا وتدريس التّوحيد في مناهجها:

✓ أنت معلّمة؟ ابذلي جهدك في تدريس التّوحيد، لا تهملِي تدريس التّوحيد.

✓ أنت أم وعندك أبنائك في البيت يدرسون التّوحيد؟ قبل أيّ شيء في حقيبته، لا تفكّري في شيء، أخرجي التّوحيد أوّل شيء وعلّميه.

✓ هيّا وتقدّمي: أنت معلمة تحفيظ؟ اهتمّي بالآيات الدّالّة على كمال الله وعلى توحيده.

✓ هيّا وتقدّمي: أنت معك مال؟ اشتري الكتب الّتي تنشر التّوحيد، بكلّ اللّغات، وها هو الحرم قريب، وها هي النّاس الّتي تتبرّع بتوصيل الكتب للخلق قريبة!

✓ وكلّ واحد فينا لابدّ أن يكون له وظيفة: لابدّ أن تكون لك وظيفة، فإذا أشرق التّوحيد جاءت العزّة: العزّة من وراء التّوحيد.

والمسلمون في جهل! يعني: هؤلاء الّذين يتبرّكون، ويطلبون غير الله، والّذي يذهب في عرفة ويسأل الوليّ الفلاني؛ هؤلاء عمّي عليهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾[1]، لكن كتابًا واحدًا يصل إلى تلك الدّيار، لا تدرين ماذا يفعل في أهلها!

---

(١) الزخرف: ٢٢.

والله لا تدرين ماذا يفعل في أهلها! وكم أتت الأخبار! كم أتت الأخبار أنّ كتابًا من كتب العلم وصل فاستفاق على أثره بلاد وعباد!

لكن كلّ واحد لابدّ أن يعرف وظيفته! ولا يكن ممّن: ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾! لأنّ هذا وصف المنافقين ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾! لكن الّذي يُحسن الظّنّ بربّ العالمين، يعرف أنّ وظيفته سهلة يسيرة في متناول يديه.

لا تفكّري: كيف أزيل الشّرك عن ديار المسلمين، كيف أمدّ يدي لإزالته؟! ابقي في الدّائرة الّتي أنت فيها، الّتي تبدأ:

- بالاستغاثة بربّ العالمين أنّه يزيل مظاهر الشّرك، ويحفظ علينا التّوحيد، نحن، وذرّيتنا، والمسلمين.

- وهكذا كما اتّفقنا كلّ واحد له وظيفته، لكن لا تقولي: (أنا صغيرة! أنا ما عندي أطفال! أنا..!)! الدّعاء، الدّعاء أنّه يسخّرك لنشر التّوحيد، يعني: هذا الرّيال والرّيالين والثّلاثة لا تستهينِي بهم! هذه تبثّ في كلّ مكان التّوحيد وأنت لا تشعرين! -والحمد الله- الأماكن الّتي توزّع الكتب على الحجّاج والمعتمرين -فالحجّاج والمعتمرون لا تظنّي أنّهم مثلنا يأخذون الكتاب بيمينهم ويرمونه! فهم ليسوا مثلنا! إنّما يتمسّكون به تمسّك من أُهْدِيَ إليه هديّة عظيمة! فهذا كلّه خير وبركة، يعني: كوننا في قلب الحدث، كوننا بجوار الحرمين، هذا كلّه يحمّلنا مسؤوليّة مهما كانت هذه المسؤوليّة بسيطة.

قال ابن كثير: (أَيْ: يَتَّهِمُونَ اللَّهَ فِي حُكْمِهِ، وَيَظُنُّونَ بِالرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ أَنْ يُقْتَلُوا وَيَذْهَبُوا بِالْكُلِّيَّةِ).

قال القنوجي: (﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ وهو ظنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم يُغلب، وأن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام ومما ظنوه ما حكاه الله عنهم بقوله، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾).

إذًا هذا المقصد: أن ظنّ السّوء، ظنّ أنّ دين النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يذهب!

قال ابن القيم -رحمه الله- في **"زاد المعاد"**: (وقد فُسِّر هذا الظن الذي لا يليق بالله، بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يُسلِمُه للقتل، وقد فُسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حكمة له فيه، ففُسّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ويُظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون به -سبحانه وتعالى- في (سورة الفتح) حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. وإنّما كان هذا ظنّ السوء، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظنّ غير الحق؛ لأنّه ظنّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وذاته المبرأة من كلّ عيب وسوء).

إذًا ما علّة كون اسم هذا الظّنّ (ظن الجاهلية)؟ لأنّه يصدر مِن مَن! (لأنّه ظنّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا)، فلا يكون إلّا من جاهل.

إذًا: أوّل طريق لتحسين الظّنّ: العلم عن الله (أسمائه، وصفاته، وأفعاله)، بحيث يكون هناك ثقة تامّة بأنّه -سبحانه وتعالى- أفعاله أفعال الحكمة.

(بخلاف ما يليق بحكمته وحمده، وتفرده بالربوبية والإلهية).

إذًا: يظنّ في الله ما لا يليق بخلاف ما يجب أن يظنّ به، وكلّما زاد علمنا بأسماء الله، كلّما زاد حسن ظنّنا به؛ **والأمر المهمّ**: كلّما استطعنا أن نرى آثار حسن الظّنّ، يعني: لا أحد يحسن الظّنّ بربّ العالمين في شرعه، أو في قدره الّذي يخصّه، أو في حال المسلمين إلّا أراه الله ما يزيده يقينًا، يعني: كلّما قلت: (أكيد لله حكمة)، أظهر لك الله من حكمه -سبحانه وتعالى- ما يزيدك يقينًا.

والنّاس الّذين يسيئون الظّنّ، هم في الضّلالة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾[1]، **معناها**: يكون يسيء الظّنّ فتجتمع عليه ملابسات تجعله يزداد سوء ظن؛ لذلك يأتي ويقول لك: (أنا عندي شواهد على أنّه ليس هناك حكمة)! تفهمين أنّ هذه الشّواهد عبارة عن مدّ له في الضّلالة لأنّه ابتدأ بسوء الظّنّ مع ربّ العالمين.

إن شاء الله نكمل الأسبوع القادم

جزاكنّ الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) مريم: ٧٥.

اللّقاء العشرون

٩ جمادى الآخر ١٤٤٠

تابع باب ذكر سوء الظّنّ بالله

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، توكّلنا على الله، نبدأ في إكمال الكلام حول كبيرة سوء الظّنّ بالله، وقد مرّ معنا سابقًا أنّ هذه الكبيرة لها وجهان أساسيّان:

١. وجه يتّصل بحال الفرد.

٢. ووجه يتّصل بحال الأمة عمومًا.

أمّا الوجه المتّصل بحال الفرد فهو سوء ظنّ الإنسان بربّه، أنّ ربّه لا يعامله في أحكامه القدريّة الواقعة عليه بما يليق بالعبد، يعتقد أنّ ربّنا ظلمه! وهذا من أعظم سوء الظّنّ بالله!

الله -عزّ وجلّ- الّذي من وصفه الحمد، أنّك تقولين: (الحمد لله ربّ العالمين)، يعني: تقولين: (الثّناء كلّه لله)، يعني: الله مستحقّ للثّناء كلّه لِمَا له من كمال صفات. فأنت معتقدة أنّ الله له كمال الصّفات، فأيّ ظنّ يخالف هذا -كأن يظنّ أنّ الّذي وقع عليه من أقدار ظلم عليه- معناه: أنه يظنّ في الله ظنّ السّوء! هذا بالنّسبة لنفسه.

أو ينظر إلى الشّرع، ويظنّ بالله -عزّ وجلّ- أنّ شرعه ناقص! أو أنّ الشّرع ظلم المرأة! أو أنّه لماذا المرأة عندها في الإرث كذا وكذا، فيظنّ أنّ الله -عزّ وجلّ- في أحكامه قد ظلم، فهذا من الجهتين يُعتبر سوء ظنّ بالله، وهي كبيرة تُردي في النّار -والعياذ بالله- **معناها**: أنّ الإنسان إذا وقع في سوء الظّنّ؛ يبدأ إيمانه في النقصان، وينقص وينقص حتّى يذهب تمامًا، وينتفي عنه الإيمان، هذا من وجه.

هناك وجه آخر لهذه الكبيرة، **وهو**: أن يظنّ العبد أنّ الله يُدِيل الباطل على الحقّ إدَالةً دائمة، بمعنى: أنّه يأتي زمن يكون فيه الإسلام لا قيمة له! يعني: دائمًا يبقى الإسلام مهزومًا والباطل هو المنتصر!

تناقشنا في هذين النّوعين فيما مضى من لقاءات، وكانت البداية اليوم المفترض أن نبدأ في قراءة كلام ابن القيم في الكلام حول سوء الظّنّ.

تابع التّعليق على دليل موطن الفتح (٦)

قال ابن القيم رحمه الله، في **"زاد المعاد"**: (وقد فُسِّر هذا الظن الذي لا يليق بالله، بأنه سبحانه لا ينصر رسوله).

هذه أوّل جملة من كلامه، وهذه الجملة تردّنا إلى الآية الأولى الّتي في المتن، الّتي هي آية آل عمران: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[١]، ومثلها آية الفتح: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾[٢]، هذا الظّنّ فسّر، قال: (وقد فُسِّر هذا الظن الذي لا يليق بالله،

---

(١) آل عمران: ١٥٤.

(٢) الفتح: ٦.

بأنه سبحانه لا ينصر رسوله)، معناها: يرسله ولا يؤيّده! يرسله بالدّين، ثمّ يقاتل الرّسول في سبيل الله، ثمّ لا ينصره الله! هذا هو ظنّ السّوء الّذي ظنّوه في الله!

(وأن أمره سيضمحل، وأنه يُسلِمُه للقتل). أمر الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم-، بمعنى: دين الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم-. ماذا سيحصل له؟ (سيضمحل)، بمعنى: يذهب. (وأنه يُسلِمُه للقتل)، لا يُدافع عنه! مع أنّكنّ تعلمن أنّه في غزوة بدر قد نزلت الملائكة تدافع عن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وعن الصّحابة الكرام، فالّذي يظنّ أنّ الله -عزّ وجلّ- لا ينصر رسوله ومن ثمّ لا ينصر دينه فقد أساء الظّنّ بالله! (وأن أمره سيضمحل، وأنه يُسلِمُه للقتل).

(وقد فُسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حكمة له فيه).

إذًا: حتّى ما وقع لهم مثلًا في أحد، ظنّوا (أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حكمة له فيه)، وأنتنّ تعلمن أنّ الصّحابة الكرام دخلوا أهمّ ثلاث غزوات وكان في كلّ غزوة منها عبرة:

- أمّا في بدر فقد جمعوا بين الإخلاص، والمتابعة، والاستعانة بربّ العالمين، والثّقة به؛ وكانت النّتيجة في بدر: النُّصرة.
- وأمّا في أحد فقد بوّأهم النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- مقاعد للقتال، وبيّن لهم أماكنهم، وخرجوا راجين وجه الله، لكن حصلت المخالفة للمتابعة، فنقص فيهم شرط المتابعة.

خالف الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- بعض الرّماة فحصل نقض لشرط المتابعة، يعني: في بدر اجتمع الشّرطان اللّذان هما: الإخلاص، والمتابعة، فتحقّقت لهم النّصرة، نصرهم الله بالملائكة، وبيّن لهم أنّه إذا أخلصتم له وقصدتم وجه الله واستعنتم بالله وتابعتم رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- وفعلتم مثلما يأمركم كانت النّصرة حليفكم. هذه كانت بدر.

أتوا إلى أحد خالفوا المتابعة. فكانت الحكمة ألّا ينتصروا في نفس أحد ليعلموا أنّ المتابعة شرط لتحقيق النّصرة، كما أنّ المتابعة شرط لقبول العمل، فالعبد يُقبل عمله إذا حقّق الشّرطين: الإخلاص، والمتابعة. فأتت أُحُد تقول: من حكمة الله للمسلمين أنّه لابدّ أن يكون هناك إخلاص ومتابعة.

- حين أتت حنين، الّتي هي الغزوة الثّالثة، كان القوم قد كثُر عددهم، لكن بسبب كثرة العدد ضعفت الاستعانة بربّ العالمين، فضعُف في جانبهم الإخلاص؛ لأنّ الإخلاص له وجوه: يبتدئ بقصد وجه الله، ويمرّ على الاستعانة بالله.

ففي حنين كثرة العدد سبّبت ضعف الاستعانة، **في مقابل:** أنّهم كانوا تابعين للنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، فكانت الحكمة في أن يهزموا في أوّل حنين: أن يَظهر لهم أنّ النّصرة إنّما هي بيد الله، لا تعجبكم كثرتكم فتظنّوا أنّ كثرتكم هي الّتي تنصركم!

إذًا: حين يحصل على المسلمين هزيمة في حال من الأحوال، هذا ليس لأنّ الدّين سيضمحلّ، وليس لأنّ الله لا ينصر دينه؛ ليس لهذا السّبب! فالّذي يظنّ هذا يسيء الظّنّ في ربّ العالمين. إنّما هذا بقضاء وقدر، وفيه حكمة.

إذًا: الإسلام يبقى منتصرًا، ولا يمكن أن يظنّ الظانّ أنّ الله يرسل رسوله ولا ينصره! بل يرسل الرّسول، ويعامله -سبحانه وتعالى- بما يليق به، وأنتنّ لابدّ أن تعلمن: من حسن ظنّكم بالله أنّ هناك نوعان من معاملة الله لعباده:

⇐ فأمّا أهل الإيمان فلهم معاملة تخصّهم بالأسباب الشّرعيّة.

⇐ وأمّا غيرهم فلهم معاملة تخصّهم بالأسباب القدريّة.

بمعنى: أنّ أهل الإيمان لا يكفيهم لا العدد، ولا العدّة، يعني: لا ينتصرون بالعدد والعدّة! حتّى لو وُجد العدد والعدّة؛ فإنّه لابدّ أن يوجد من أهل الإيمان الشّرطان: الإخلاص، والمتابعة.

وأهل الكفر؟ ستقولين: (أهل الكفر، لا إخلاص! ولا متابعة!)، **نقول**: نعم؛ لأنّ سنّة الله مع أهل الكفر سنّة كونيّة، وسنّة الله مع أهل الإيمان سنّة شرعيّة، فأهل الإيمان لا ينتصرون إلّا بوجود هذين الشّرطين: الإخلاص لربّ العالمين الّذي يتضمّن: الاستعانة بالله والذّلّ له، ومتابعة رسول الله -صلّى الله عليه وسلم-؛ إذا تحقّق الشّرطان كما ظهر في بدر؛ حتّى لو ضعُف العدد تحصل النّصرة، ولو تخلّف أحد هذين الشّرطين ينزل فيهما قضاء الله وحكمة الله، هذا بالنّسبة لأهل الإيمان.

وأهل الكفر؟ يعاملهم الله بالسّنّة الكونيّة الّتي هي أنّ الأقوى والأكثر مكرًا هو الّذي يهزم الأقلّ والأضعف.

إذًا: غزوة بدر، ماذا تقول للمؤمنين؟ أنّ العدد والعدّة شأن متأخّر في أهمّيّته، لابدّ أن يكون موجودًا، لكنّه ليس هو سبب النّصر، ما هو سبب النّصر؟ الإخلاص، والمتابعة؛ وأهل الكفر المسألة عندهم دائرة حول السّنّة الكونيّة؛ **إذًا**: هناك سنّة شرعيّة، وسنّة كونيّة.

أنت حين تجدين المسلمين مهزومين -يعني: مثل الواقع الآن- لابدّ أن تتّبعي الشّرطين، وتبحثي أين الخلل فيهما؟ **لتعرفي**: من أين تأتي الهزيمة؛ فبكلام مختصر لا يحتاج إلى تتبّع طويل: النّصرة أليس شرطها الإخلاص؟ وبعدها المتابعة؟ انظري حولك، وانظري كيف أنّ الشّرك منتشر في كلّ مكان! وانظري كيف يدعون غير الله! وكيف هنا مولد السّيّد كذا! وهنا مولد السّيّد كذا! وهنا يعبدون غير الله! وهنا يتبرّكون بغير الله! وهنا يذبحون لغير الله! وهنا يطوفون حول القبر! فعامّة حال المسلمين بعيد عن الشّرط الرّئيس الّذي أصلًا الرّسول أُرسل لتحقيقه! فلذا واضح جدًّا أنّ الهزيمة سببها تخلّف الشّرط الشّرعي، الّذي هو شرط الإخلاص؛ ومن ثمّ مهما كان هناك من جهود فإنّها في حقّ المسلمين لا تُثمر! وأوّل الجهاد وأهمّه هو الدّعوة إلى التّوحيد.

دعنا نرجع إلى المسألة الأساسيّة، **وهي**: مسألة سوء الظّنّ بالله؛ لأنّها مسألة من أخطر المسائل، ونحن مرّت معنا آية فصلت: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾[1]، يعني: ممكن هذا الظّنّ إذا تمكّن من قلوب أصحابه أن يُرديهم في النّار! فهذا مصلٍّ صائم لكن يدور في قلبه سوء الظّنّ بالله! بدلًا من أن يكون عامرًا بالثّقة بالله وحسن الظّنّ بالله، بدلًا من أن

(١) فصلت ٢٣.

يكون قلب المؤمن عامرًا بمعرفة الله بأسمائه وصفاته، يكون بالعكس ممتلئًا بسوء الظّنّ! إذا امتلأ بسوء الظّنّ نُزِعَ عنه وصف الإيمان؛ لذلك: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾.

إذًا: هنا في هذه الجملة فهمنا: أنّ سوء الظّنّ تصوّر ما لا يليق بالله عزّ وجلّ:

- بأنّه لا ينصر رسوله صلّى الله عليه وسلّم!
- وأنّ أمره سيضمحل!

فلا يفسّرها بالقضاء والقدر والشّروط الّتي مرّت معنا.

(ففُسّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ويُظهره على الدين كله).

معنى ذلك: ما عقيدة أهل الإيمان؟

- ✓ أنّ الله سينصر رسوله.
- ✓ وإذا وقع شيء من النّقص؛ إنّما يكون لحكمة.
- ✓ ولابدّ أن يظهر الله دين الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم-، على الدّين كلّه.

(وأن أمره سيضمحل، وأنه يُسلِمُه للقتل، وقد فُسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حكمة له فيه، ففُسّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ويُظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء

الذي ظنه المنافقون و المشركون به -سبحانه وتعالى- في (سورة الفتح) حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. وإنّما كان هذا ظنّ السوء، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظنّ غير الحق؛ لأنّه ظنّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وذاته المبرأة من كلّ عيب وسوء، بخلاف ما يليق بحكمته وحمده، وتفرده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنّهم هم الغالبون).

في آية الفتح أخبر الله -عزّ وجلّ- عن ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾، من يشترك معهم أيضًا؟ ﴿الْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾. كلّ هؤلاء يشتركون في صفة، أنّهم ماذا؟ ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾، ثمّ أخبر -سبحانه وتعالى- عن عقوبتهم الّتي ستقع عليهم.

نحن يهمّنا الآن من أجل أن نكون في حذر -فقط هذا هو المهمّ- لأنّ ﴿الْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾، هؤلاء معروفون، لكن ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾، هؤلاء قد يكونون في داخل المجتمع الإسلامي! فكلّنا بالذّات لابدّ أن نكون أشدّ ما نكون حذرًا من النفاق.

فالمنافق ليس اسمه منافقًا ويجد بأنّه مكتوب عليه منافق! لا! وإنّما هي مجموعة صفات، إذا تحقّقت هذه الصّفات كان هذا الاسم لائقًا به! فلأجل ذلك كلّ مرّة نراجع الصّفات، وكلّ الصّفات الّتي تتّصل بالنّفاق أصلها متّصل بالاعتقاد، وإن كانت لابدّ أن تظهر على السّلوك.

دعنا نرى الآن: هؤلاء ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾، ماذا يظنّون بربّ العالمين؟ قال: (وإنّما كان هذا ظنّ السوء) يعني: الّذي في الآية، (وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل)؛ لأنّ الله -عزّ وجلّ- قال عنهم إنّ هؤلاء ظنّوا بالله: ﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾، وفي الآية السّابقة الّتي مرّت معنا: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾. لماذا ﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾؟ سيتبيّن لنا. لماذا ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾؟ لأنّه لا يصدر إلّا من جاهل. بماذا؟ سيعدّ لنا:

(وظنّ غير الحق؛ لأنّه ظنّ غير)، وهذا الظّنّ خلاف ما يجب أن تعتقديه. الّذي يعتقد أنّ الله يديل الباطل على الحقّ دائمًا؛ يظن بالله ظن الجاهلية، لماذا؟ لأنّه يظنّ خلاف ما يليق بأسماء الله الحسنى (وصفاته العليا، وذاته المبرأة من كلّ عيب وسوء)، هذا الأمر الأوّل.

لماذا ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾؟ لأنّه لا يصدر إلّا من جاهل بالله وأسمائه وصفاته وذاته المبرأة من كلّ عيب! **ومعنى ذلك**: أنّه إذا كان هناك في النّفس سوء ظنّ، **إذًا**: حين يأتي أحد فينا ويقول: (اللّهم أنت السّلام، ومنك السّلام)، يكون يقول كلامًا خلاف ما يظنّه في قلبه؛ لأنّ الّذي يظنّ أنّ الله سلام، يعني: يظنّ أنّه سالم من كلّ نقص وعيب، مبرّأ -سبحانه وتعالى- من أيّ ظنون في السّوء؛ فإذا وقعت الأقدار، وظنّ الظّانّ أنّ هذه الأقدار خلاف الحكمة، فيكون الخطأ في ظنّه، وليس في فعل الله.

ولذا بعد كلّ صلاة نحن نقول: (اللّهم أنت السّلام)، يعني: أنت صفاتك كلّها سالمة من كلّ نقص وعيب، وكلّ صفة كمال لك سالمة من أيّ نقص، يعني:

⇐ الله صفاته كلّها سالمة من النّقص.

⇐ وصفات كماله نفسها كاملة من النّقص.

بمعنى: لو نشرح على الخلق: الخلق ليسوا سلامًا، لماذا؟ لأمرين:

- إذا كان عندهم صفات كمال، فهم بجوار صفات الكمال عندهم صفات نقص.

- وليس هذا فقط بل حتّى صفات كمالهم نفسها ناقصة.

فلو كان الكرم من صفات كمالهم، فالخوف من الفقر من صفات نقصهم، أو الفقر نفسه من صفات نقصهم. تعالي إلى الكرم، هل بكرمهم يسع النّاس كلّهم ويسع العالمين؟ لا، **إذًا**: الله وحده السّلام، **بمعنى**: أنّ صفاته لا نقص فيها، وأنّ صفات كماله كاملة.

إذًا: من الجاهل؟ من الّذي يُنسب للجاهليّة؟ الّذي يسيء الظّنّ بالله. لماذا هو جاهل؟ لأنّه نسب لله السّلام صفات نقص، ويصير معناها: قال بلسانه ما لا يعتقد وجدانه. وهذا هو الخطأ الكبير: أنّك تقولين في الرّكوع: (سبحان ربّي العظيم)، وبعد ذلك لا يكون في قلبك عظيمًا! ثمّ إنّك حين تقولين: (سبحان)، يعني: أنا أُبْعِدُ، (سبحان) من سَبَحَ، يعني: أَبْعَدَ عن الشّاطئ؛ فالّذي يقول: (سبحان ربّي العظيم)، يعني: يقول: (أنا أُبْعِدُ كلّ خاطرة تمرّ على ذهني فيها نقص في ربّ العالمين، وأعتقد أنّه عظيم). فأنت تقولين في الرّكوع: (سبحان ربّي العظيم)، وفي السّجود: (سبحان ربّي الأعلى)، وقبل أن تسلّمي تقولي: (التّحيّات لله، والصّلوات، والطّيّبات)، يعني: التّحيّات الكاملات

الدّالّة على كماله، وبعدها تسلّمين، وبعدها تقولين: (اللّهمّ أنت السّلام)، وتخرجين من الصّلاة؛ **من المفترض**: أن يكون القلب خاليًا من كلّ ظنّ السّوء.

لكن سنرجع لنفس العيب: كلام باللّسان، ووجدان في مكان آخر خالٍ! لذلك هذا ظنّ السّوء هو ظنّ الجاهليّة لا يصدر إلّا ممّن جهل، وهذا هو الجهل الحقيقي! يعني:

- ✓ أيّ شيء بعد الله، وبعد دينه، العلم به زيادة.
- ✓ وأيّ جهل بأيّ شيء بعد الله وبعد دينه لا يضرّ.

لكن الّذي يضرّ ويُرْدِي **هو**: الجهل بالله، وبدين الله؛ فلذا سمّاهم: ﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾. لماذا؟ لأنّهم يجهلون عن الله.

لماذا هذا ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾؟ لأنّ أهله يظنّون بالله ما لا يليق (بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وذاته المبرأة من كلّ عيب وسوء)، يعني: أنت ستكتبين فوقها: عقيدتي الضّدّيّة، أنت ماذا تعتقدين؟ أنّ الله سلام، هذا الّذي تعتقديه. وانظري: كم نكرّر اسم السّلام؟

أيضًا لديهم مشكلة الآن، فنحن الآن لدينا ثلاث نقاط: كلّ واحد يظنّ ظنّ الجاهليّة في الله، ويظنّ أنّ الله ينصر الباطل على الحقّ، وأنّ الّذي يراه اليوم من تأخّر المسلمين وتقدّم الكافرين إنّما يدلّ على أنّ دين الكفّار أحسن من دين المسلمين. الّذي يظنّ هذا إنّما شَابَهَ المنافقين والمشركين في ظنّ الجاهليّة.

أنت ماذا تقولين؟ (لا! أبدًا! لا يُديل الله أهل الباطل على أهل الحقّ دائمًا، لكن لابدّ أن يكون هناك حكمة من رفع أهل الباطل على أهل الحقّ، إلّا وأهل الحقّ قد فقدوا الشّرطين أو أحد الشّرطين؛ فلذا كان من حكمة الله أن يقدّم عليهم عدوّهم لأجل أن يستفيقوا؛ وإلاّ فإنّ تفضيلهم ليس من أجل جنسهم وإنّما تفضيلهم من أجل استقامتهم على الدّين؛ فالّذي يظنّ بالله أنّه ينصر الباطل على الحقّ:

أوّلا: انتفى عنه الإيمان باسم الله السّلام.

ثانيًا: ظنّ بالله غير ما يليق بحكمته، وحمده، وتفرّده بالرّبوبيّة والإلهيّة.

هذا الشّأن الثّاني، الّذي يظنّ أنّ الله يديل الباطل على الحقّ، وأنّ هذا الحقّ سيذهب؛ يظنّ في الله خلاف حكمة الله وخلاف حمد الله وخلاف تفرّده بالرّبوبيّة والألوهيّة. يعني: أليس الرّسول رسولًا من عند الله؟! أليس الربّ هو الّذي يدبّر الكون؟! هو رسول من عنده، هل يتركه ولا ينصره؟! هو قادر على أن يدبّر الكون فينصره؛ فالّذي يظنّ أنّ الباطل دائمًا يكون فوق الحقّ، كأنّه يقول: (الله -تعالى الله عن هذا الظّنّ- غير قادر على نصرة دينه! وأنّه ليس هو الّذي يصرّف الأمور لأنّه شكّ في حكمة الله)! وأنت كلّ مرّة تقولين: (لماذا ينتصرون في بدر وهم قليلون؟ ويهزمون في حنين وهم كثيرون؟)، ستقولين: لأنّهم لو نُصِروا في حنين كانوا ظنّوا أنّ الّذي نصرهم قوّتهم، فهُزموا في أوّل الشّأن؛ لم يُنصروا في أحد، حتّى يعرفوا أنّهم حين يخطئون في متابعة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، يُعاقبون هذا العقاب، ويبقى على مرّ السّنين ثلاث غزوات للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، كالدّرس:

⇐ إذا أخلصت وتابعت ينصرك ولو كنت قليلًا.

⇐ إذا تركت المتابعة ستُهزم.

⇐ إذا تركت الإخلاص ستُهزم

فيكون هذا ما يُوافق حكمة الله. الله الرّبّ قادر أن يدبّر الأمور تدبيرًا تامًّا مثلما حصل في الأحزاب. هل في الأحزاب تقاتلوا؟ لم يتقاتلوا لأنّ الله الرّبّ قدّر أن هبّت عليهم رياح، ووقع في نفوسهم الخوف، أتت أمور من آثار ربوبيّته أذهبت بهم، فهو الرّبّ -سبحانه وتعالى- الّذي يُدبّر الأمور.

فالشّأن أنّك تؤمنين أنّ كلّ شيء يصير له حكمة، وأنت تتعلّمين عن ربّ العالمين وتعرفين، اليوم دعوت، دعوت، وتعلّقت، وحُبس عنك الشّأن، فتّشي في نفسك: لابدّ وأن يكون هناك حكمة:

✓ إمّا أن يكون هذا محبوسًا لتدبير شؤونه من أجل أن يأتيك الرّزق في أحسن الأحوال.

✓ وإمّا أن يكون محبوسًا لتزدادي ذلًّا، فتجدين هذا الدّعاء يوم القيامة يرفعك درجات عند ربّ العالمين.

✓ وإمّا أن يكون ما تطلبينه ليس خيرًا لك، وسيأتيك الوقت الّذي تكونين متيقّنة فيه، وكم عشنا وشكرنا ربّ العالمين على أنّه لم يستجب لنا بعض الدّعوات.

فكلّما كبر الإنسان ونضج وعقل؛ يفهم هذا جيّدًا، فلا تسيئي الظّنّ بالله. الله يقول للشّيء كن فيكون، لكن أنت لست موجودة هنا من أجل أن تأخذي وتأخذي! وإنّما أنت موجودة هنا للاختبار؛ **والاختبار الأهمّ على الإطلاق**: أن لا يسكن في قلبك إلّا حسن الظّنّ بالله، هذا أعظم اختبار نعيشه كلّنا لا يسكن في قلبك إلّا حسن الظّنّ بالله! يعني: تأخّر عنك كذا! جاءك كذا! تُمنعين كذا! تأتي الأمور على خلاف ما تريدين! كلّه إنّما لشأن تُختبرين فيه. اتركي عنك التّفكير في المصالح، يعني: (ماذا وراء هذا يا ربّي؟ ماذا يمكن أن تكون الحكمة؟)، لا! اتركي هذا! أنت فقط حدّدي في كلّ مرّة تأتيك الأمور على خلاف ما تريدين، حدّدي شأنًا واحدًا: (أنّ قلبي لابدّ أن ينطوي على حسن الظّنّ بالله).

إذًا لماذا ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾؟ لأنّهم خالفوا أمرين في عقيدتهم في الله:

الأولى: خالفوا أنّ الله اسمه السّلام.

والثّانية: خالفوا أنّ الله حكيم؛ فلذلك ظنّوا خلاف ما يليق بحكمته، وحمده، وتفرّده بالرّبوبيّة والإلهيّة.

والأمر الثّالث: الّذي وقعوا فيه أنّهم جاهلون.

جاهلون بماذا؟ قال: (وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم)، يعني: يصير هو جاهلًا بأنّ الله ناصر رسله ولابدّ.

نحن سنقول: هذه المسألة أين المشكلة فيها؟ وبعد ذلك نقول: أيّ اسم خالفوه في الإيمان؟ يعني مثلا: الله -عزّ وجلّ- يقول:

⇐ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1]، **أين الوعد هنا؟** أنّه يكون معك. ماذا ستعملين أنت؟ ستصبرين.

⇐ ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾[2]، **ما هو الوعد؟** ﴿يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾، ماذا ستفعلين؟ تتّقين.

هذا وعد الله، وهذا الفعل منك. أين تأتي المشكلة؟ **تأتي المشكلة**: أنّنا لا نحقّق الجزء المطلوب منّا، يعني: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾، ما هو المطلوب منك؟ أن تتّقي الله. فأنت تدخلين في مشكلة الآن، مشكلة مع زميلتك في العمل، مشكلة مع رئيستك في العمل، مشكلة مع جيرانك، مع زوجك، مع أبنائك، إلى آخره، ونبقى نشتكي منهم، ونتكلّم عليهم إلى آخره، ونقول في نهاية الكلام: (أنا سأتّقي ربّنا! ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾) ونقول أيضًا لأنفسنا: (﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾)! ونحن نكون ما تركنا أحدًا إلّا وشكونا إليه! وكلّ أنواع الصّبر أصلًا فقدناها! وأنت حين تتكلّمين لابدّ وأن يخرج من لسانك شيئًا من الافتراء لأنّك ترين الموضوع بنظرتك، يعني: فقدت التّقوى، فقدت الصّبر، وتنتظرين من الله أن يوفي لك بالوعد، لكن أنت لم تحقّقي شرطه! فكيف تنتظرين الوعد؟! أنت كوني واثقة أنّه إذا حُقِّقَ الشّرط وقع الوعد؛ الشّرط من يحقّقه؟ أنت.

---

(١) البقرة: ١٥٣.

(٢) الطلاق: ٢.

ولهذا هؤلاء ينقصهم الإيمان باسم الله "**المؤمن**"، وهذا من الأسماء العظيمة لله -عزّ وجلّ- أنّه "**مؤمن**" سبحانه وتعالى. "**مؤمن**"، **بمعنى:** مصدّق، فهو مصدّق لرسله ما وعدهم، ومصدّق لعباده المؤمنين ما وعدهم في كتابه وعلى لسان رسوله، لكن متى؟

دعنا مثلا في هذا المثال: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1]، يعني: نحن لا نقدر أن ننصر الله في أن نقوم في وقت مناسب في اللّيل من أجل أن نصلّي! تدقّ السّاعة، فتقولين: (هيّا خذي غفوة قليلًا)! إلى أن يؤذّن الفجر! وجماعة الفجر مثل هذا! فالآن تأتي مثلًا إجازة الأسبوع، وبما أنّه لا يوجد هناك شيء يلزمهم، تدقّ ساعتهم فيقولون لأنفسهم: (بعد قليل أستيقظ) لا يستيقظ إلّا والنّور قد خرج! وكذلك هناك من يكسل عن ذلك، يقول: (ما دام أنّه خرج الوقت إذًا دعني أكمل نومي)! وكلّ هذه آثام بعضها فوق بعض! يعني: من هذا الّذي يستحقّ النُّصْرَة وهو غير قادر على أن ينصر الله في نفسه ويقوم من فراشه! وغير قادر على أن يقوم ليصلّي الفجر! ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾! انصر الله في نفسك! انصر الله على نفسك! فالشّقّ الأوّل غير محقّق وتريد الشّقّ الثّاني! **فما عَلِمَ:**

- لا أنّ الله "**سلام**"!
- ولا أنّ الله "**الملك الحكيم**"!
- ولا عَلِمَ أنّ الله هو "**المؤمن**"!

(١) محمد: ٧.

فأكيد أنّه سَيُسيء الظّنّ بالله!

فالمقصد: أنّ الّذي يظنّ أنّ الدّين سبب تخلّفنا، أنّ الدّين سبب تأخّرنا؛ ما عرف الله! ولا حكمة الله! ولا وعد الله! إذا حقّق النّاس الإيمان بالله كما ينبغي، سيجدون ما وعدهم ربّهم حقًّا، لكنّهم لم يحقّقوا الشّروط فليسوا أهلًا لأن يكونوا أهل النّصرة، يعني: هذا الدّين منتصر أكيد، لكن هل نليق نحن لنصرة الله؟! هذا هو الإشكال. وإلاّ فإنّه نُصِرَ الدّين ولم يكن له أهل. نُصِرَ الدّين ولم يكن هناك جماعة. فكم كانوا في بدر ومع ذلك نصرهم الله! فبدر تُعتبر على حين غرّة، ولا تُعتبر بدر فيها من الاستعدادات ما فيها! لكن نُصروا لأنّ الله نَصرهم؛ ونَصرهم الله لأنّهم حقّقوا الشّرط. الله قادر على أن يقلب كلّ موازين القوّة، لكن ليس هذا المقصود في الدّنيا؛ و**إنّما المقصود في الدّنيا**: أن يُختبَر الإنسان. ﴿إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾، يعني: أليس الله بقادر على أن ينصرنا حتّى وإن ما نصرناه؟! بلى، لكن هكذا ما حصل الاختبار! فأنت قد اختُبرت بالشّريعة، بالدّين، فإن حصل منك النَّصر نصرك الله. وهذا في الصّغير من أمورنا، إلى الكبير الضّخم في أمور الأمّة.

فالشّاهد بعد هذا الكلام كلّه: أنّ ظنّ السّوء إنّما يكون من جهل النّاس بربّ العالمين، وهنا ظنّ السّوء ينقسم إلى قسمين:

- إمّا ظنّ السّوء في شيء يخصّنا، يعني: في أقدارنا الخاصّة، نقول: (ربّنا ظلمنا)! -نعوذ بالله من هذا الكلام!-. أو أنّ: (الشّريعة لماذا فعلت للمرأة كذا! وكذا)! هذا نوع.

ونوع آخر يظنّ بالله ظنّ السّوء أنّ هذا الدّين هو سبب تخلّف النّاس! أنّ النّاس تخلّفوا بسبب الدّين! وأكيد تسمعن هذا الكلام حتّى تعبت رؤوسكنّ من كثرة الهجوم على الدّين بهذا المنطق وأنّ ترك الدّين حلّ للتّقدّم والازدهار!

الجواب: أنّ من عرف الله حقّ المعرفة أحسن الظّنّ، ومن جهل بالله أساء الظّنّ في ربّ العالمين. سنقرأ الكلام الباقي، فهو يزيد الأمر بيانًا، إلى أن نصل إلى النّقطة الّتي نريد زيادة شرحها:

(فمن ظن بأنّه لا ينصر رسوله ولا يتم أمره، ولا يؤيده، ويؤيد حزبه، ويعليهم، ويظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحقّ إدالة مستقرة يضمحلّ معها التوحيد والحقّ اضمحلالًا لا يقوم بعده أبدًا، فقد ظنّ بالله ظنّ السّوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله، وصفاته ونعوته. فإن حمده وعزته، وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة، والظفر الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به).

يعني: أهمّ شيء هنا أن تتصوّري أنّه لا يمكن (أن تكون النصرة المستقرة، والظفر الدائم لأعدائه). والّتي تكون من وقت لوقت، فإنّ هذه تكون لحكمة، يعني: لا تتصوّري أنّه دائمًا أهل الباطل ينتصرون على أهل الحقّ، لكن لحكمة ينتصر أهل الباطل على الحقّ، **وأهمّ حكمة**: أن يتيقّظ أهل الحقّ لنقصهم في الحقّ، على مقدار نقصهم في الحقّ؛ بقدر هذا التيقّظ تحصل النُّصرة لهم.

(فَمن ظنَّ به ذلك، فما عرفه، ولا عرف أسماءه، ولا عرف صفاته وكماله. وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره، فما عرفه، ولا عرف ربوبيته، وملكه وعظمته، وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة، وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فوتها، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يحب، وإن كانت مكروهة له، فما قدرها سدى، ولا أنشأها عبثًا، ولا خلقها باطلًا).

يعني: شرعًا ربّنا ما يحبّ هزيمة أهل الإيمان، لكن قدرًا هناك حكمة في مثل هذا.

(﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1]. وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله، وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجب حمده وحكمته، فمن قنط من رحمته، وأيس من روحه، فقد ظن به ظن السوء).

أتينا هنا في الكلام الّذي يخصّ الإنسان نفسه، يقول: (وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء)، في ماذا؟ (فيما يختص بهم)، فنحن كأنّنا رجعنا للأمر الأوّل (وفيما يفعله بغيرهم)، يعني: حتّى أنّهم أحيانًا يرون أقدارًا على غيرهم، فيقولون: (مساكين! حرام! لا يستحقّون) من هذا الكلام.

---

(١) ص: ٢٧.

ومن الّذي يسلم؟ يقول: (ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله، وعرف أسماءه وصفاته)، يعني ما هو العلاج لسوء الظّنّ؟ المعرفة، العلم عن الله. (وعرف موجب حمده وحكمته) يعني: إذا قلت: (الحمد لله)، معناها: أنت تقولين: (الله له الثّناء الكامل)، ولماذا له الثّناء الكامل؟ لِمَا له -سبحانه وتعالى- من كمال صفات، والّذي له كمال صفات لا يتصرّف إلّا بحكمة، يضع الأمور في موضعها، لا يتصرّف إلّا من صفاته.

فإذا كنت تعرف عن الله أنّه "**رحمن رحيم**"، وأنّه "**لطيف**"، وأنّه "**مجيب**"، وأنّه "**ستّير**"، وأنّه "**قريب**"، وأنّه "**مجيب**"، وأنّه "**رزّاق**"، ماذا تنتظر منه؟ ماذا تنتظر ممّن هذه أوصافه؟ لا تنتظر إلّا كلّ خير:

- ✓ فإذا سمعت عن جبره، **علمت**: أنّه يجبر القلوب المنكسرة.
- ✓ وإذا سمعت عن ستره، **علمت**: أنّه لا أحد يسترك إلّا إيّاه.
- ✓ وإذا سمعت عن رزقه، **علمت**: أنّه "**الرّزّاق**"، "**الكريم**".
- ✓ وإذا سمعت عنه -سبحانه وتعالى- وعن كماله في ندائه لعباده أن يسألوه ليُجيبهم، **علمت**: أنّه "**قريب**"، "**مجيب**"، يحبّ من عباده أن يسألوه ليعطيهم، إنّه "**الكريم**" سبحانه وتعالى، إنّه "**الغنيّ**".

فكيف تسيئين الظّنّ به إذا حبس عنك ما تريدين وقدّر لك ما لا تريدين كيف تُسيئين الظّنّ به؟! وهو أفعاله -سبحانه وتعالى- أمام عينيك كلّها موضوعة في مكانها.

فالمقصد: أنّ الإنسان لو كان يقول بلسانه ما يعتقد في جنانه، ما كان سيُسيء الظّنّ بالله، ولا أحد يقول: (الحمد لله)، ثم يظنّ أنّ الله يعامله بما لا يليق! لا أحد يقول: (اللّهم أنت السّلام)، ثم يظنّ أنّ الله يعامله بما لا يليق! بل لابدّ أن تعرفي موجب حمده وحكمته سبحانه وتعالى.

ما أهمّ شيء يحصل بعد ذلك إذا حصل سوء الظّنّ؟ (فمن قنط من رحمته، وأيس من روحه، فقد ظن به ظن السوء) هذا سيذكّرنا بالّذي مضى، إنّ سوء الظّنّ بالله تعليل لكبيرتين سابقتين: **"اليأس من روح الله"**، و **"الأمن من مكر الله"**، وكلاهما يوصلان لنفس النّقطة، يعني: حتّى **"الأمن من مكر الله"**، سببه: **"سوء الظّنّ بالله"**.

فهو يقول: (فمن قنط من رحمته، وأيس من روحه، فقد ظن به ظن السوء)، ماذا يعني (أيس من روحه)؟ يعني: يدعو ويدعو ربّنا أن يعطيه الشّيء وما يُعطيه إيّاه، فماذا يفعل؟ يقول: (دعوت ربّنا كثيرًا وما استجاب فماذا يفعل؟ يقطع الدّعاء!

ودائمًا هنا تأتي أسئلة: (يمكن أن يكون نفس الشّيء ليس مناسبًا! ويمكن أن يكون هذا الشّيء لا يريد ربّنا أن يعطيني إيّاه هنا في الدّنيا!)، فأنت اسألي، اسألي **"الكريم"**، اسأليه واطمعي في سؤاله، ثمّ وسّعي سؤالك حتّى تجعليه سُؤالَ من يرجو رحمة الله، ويرجو من الله أن يعطيه خير اختيار، ويرجو من الله أن يعطيه خير الأحوال، يعني: أنت تبدئين: تضيّقين وتقولين: (أعطني بيتًا! أعطني بيتًا!)، وبعد ذلك تبدئين توسّعين المسألة، تقولين: (أعطني ما يسترني! أعطني ما يجبرني!)، وسّعي المسألة، اطلبي منه وهو -سبحانه وتعالى- وليّ

المتّقين، يعطيهم ما يكفيهم، ويعطيهم في الوقت المناسب، بالصّورة المناسبة، بالحال المناسب.

وإذا ما أُعطيت في الدّنيا، هل تعتقدين أنّ هذا الدّعاء يذهب؟! فهذا الدّعاء بنفسه ما جاءت الحاجات ولا شعرت بها إلّا لأجل أن تُنشئ الدّعاء؛ فالدّعاء قبل أن تفكّري في إجابته، فكّري في الملائكة الّتي تكتب لك الدّعاء حسنات، كونك فقط تدعين! فقط تقولين: (يا ربّ!)؛ نفس دعائك هذا باب تُكتب به الحسنات، يعني: كأنّك سبّحت وكبّرت وهلّلت؛ ولذلك لماذا تبخلين على نفسك؟! ادعي وأنت واثقة في ربّ العالمين أنّه ليس فقط يعطيك ما تريدين، بل يعطيك ما يرضيك بألطف ما تكون أسبابه! يعني: أنت تفكّرين في شيء شاقّ الوصول إليه، فينزعك من هذا، ويضعك في شيء ألطف ما يكون. لكن متى؟ فإنّ (متى!) هذا هو اختبار الصّبر والثّقة وحسن الظّنّ، وطوال الوقت تقولين: (والله لا يخذلني الله! والله سيعطيني أحسن ممّا أظنّ! وفي طريق ألطف ممّا أظنّ! وفي وقت أحسن ممّا أظنّ!)، وكلّ هذا قد يتحقّق في الدّنيا، ويمكن أن يكون تحقّقه في أعظم حال من الدّنيا وهي الآخرة، **لكن أنت دائما فكّري**: أنّ مُحسن الظّنّ بالله يعلم أنّ الله أنشأ للعباد الحاجات لأجل أن تنشأ منهم العبادات والطّاعات، فتكتب الملائكة الكرام لهذا العبد على شهوته الّتي يرغبها حسنات! يعني: حتّى رغباتك باب من أبواب حسناتك! فما أكرمه بعباده!

أمّا سوء الظّنّ واليأس من روح الله يُفسد ما يفسد من حال العبد! يعني: ماذا كانت رغبتك؟ **دعينا نبدأ نقول**: رغبتك أن تخشع في الصّلاة، هذه رغبة

عظيمة وجميلة، ادعي الله! ادعي الله أن يرزقك الخشوع في الصّلاة. وتدعين وتأتي الصّلاة الّتي بعدها فلا تخشعي، ادعي الله! تصلّي ولك عشرة سنوات وأنت تدعي وقلبك لازال في مكانه، فأنت هذه الحاجة الموجودة لك نفسها باب من أبواب الحسنات!

هذا مثال على الحاجة الدّينية، ومثلها أيّ حاجة دنيويّة، حتّى أنّ الصّحابة فطنوا لذلك، وعرفوا مقدار فضل الله عليهم بالدّعاء، فكان إذا نقص عليهم حتّى الملح! قبل أن يفكّروا في يمين أو يسار يطلبون الله! لماذا! لتكتب لهم الملائكة حسنات. على ماذا؟

- ✓ على حسن الظّنّ بالله.
- ✓ والثّقة بالله.
- ✓ وطلب الله.

ثمّ هُم بالأسباب، فلا تخافوا فإنّ الأسباب تأتي من ربّ الأسباب. (فيا صاحب الأسباب ارزقنا الأسباب!)، أنت لا تظنّي أنّ الشّريعة تريد منك أن تجري على الأسباب. لا! وإنّما الشّريعة تريد منك بمجرد أن تحتاجي تفزعي للأوّل الّذي ليس قبله شيء، والأوّل الّذي ليس قبله شيء يمدّ لك الفكرة بالسّبب، أو يمدّ لك السّبب حتّى بدون الفكرة! فالشّيء تكونين ترينه أمام عينيك من الأوّل وما فكّرت ولا لمرّة أنّه سبب. فإذا مدّك بالفكرة انكشف أنّه سبب وانتفعت به! وكم مرّة أنت تقولين: (أنا محتاجة لكذا! ومحتاجة لكذا!)، وتذهبين تبحثين، وتخرجين للأسواق، وبعد فترة تفتّشين تجدينه في دولابك!

لماذا ما تذكّرت؟ ما السّبب؟ أغفلك صاحب الأسباب، يعني: لو استهديت من بداية الموضوع لكُفيت!

فالمقصد: أنّه لا ييأس من روح الله إلّا من أساء الظّنّ بالله! وإلاّ فابقي ادعي واسألي وارجي! في كلّ شأن يخصّك، أو يخصّ الأمّة، أو يخصّ الشّباب، أو يخصّ أبناءك، ماذا يكون العبد أمامه؟! ماذا يكون الحال؟! الله يهدي الشّباب جميعًا ويردّهم إليه ردًّا جميلًا، يعني: يكون الأبناء في حال يرثى لها - الله يصلحهم جميعا- إمّا ترك للصّلاة! أو بعد عن الدّين! إمّا أفكارًا باطلة! إمّا مخدرات! -الله يحفظهم جميعًا ويردّهم إليه ردًّا جميلًا- أينما كانوا بعيدين الله يقربّهم وهو ربّ العالمين، لكن أنت خذي الوسيلة، ولا تشترطي على ربّ العالمين أن تري النّتائج، عيب! فأنت خذي الوسيلة وإذا عشت ورأيت فالحمد لله، وإذا عشت ولم تري ستجدينه وراءك، وهذا يُقال للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾[1]، يعني: هو جاء لأجل نُصرة الدّين، ويُقال له: ممكن أن نُريك نصرة الدّين، وممكن أن تموت وما نُصر الدّين! فإذا كان النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يُخاطَب بذلك، فنحن من باب أولى، لكن لا تيأس من روح الله! لا في هداية نفسك وصلاحها، ولا في هداية أبنائك وصلاحهم، ولا هداية المجتمع وصلاحه، ولا في هداية أحد أبدًا؛ بل كلّما رأيت الفتن تعتصر أكثر الشّباب كان دعاؤك أكثر إلحاحًا، وثقتك بالله أعظم أنّ هذا ما يزيله إلا:

✓ طلب الله.

---

(١) غافر: ٧٧.

✓ والاستغفار.

✓ وسؤال الله -عزّ وجلّ- أن ينزّل رحماته، ويرشد الشّباب إلى الطّريق المستقيم.

أسأل الله -عزّ وجلّ- أن يحفظهم، ويحفظ قلوبهم، ويبعدهم عن كلّ أسباب الفتن...اللّهمّ آمين.

سيذكر لنا أشياء من صور سوء الظّنّ، نمرّ عليها سريعًا:

(ومن جوز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويسوى بينهم وبين أعدائه، فقد ظن به ظن السوء).

هذه أيضًا من المشاكل الّتي من الممكن أن يأتي بها الشّيطان، يعني: أنت تكونين مستقيمة، وباذلة جهدك في طريق ربّ العالمين، ثمّ إنّ من حولك يشعرونك: (أنّك تتعبين نفسك بدون جدوى! فممكن بعد هذا كلّه يكون لا شيء)! فمثل هذا الكلام ممكن أن يوقع في النّفس أنّه: (وما أدراني أنّني مقبولة؟!)، نقول: أنت بهذا أتيت بطرف الحلّ: كلّما عملت لابدّ أن تبدئي أوّلًا بحسن الظّنّ بربّ العالمين، أنّه لا يمكن أن يجتهد أحد في تقوى الله، ولا يكون وليًّا لله، إنّ ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾(١)، لكن السّؤال: وما أدراني أنّني مقبولة! نعود مرّة أخرى ونقول: كلّما عملت افعلي ما فعل إبراهيم عليه السّلام: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾(٢)، فبدلًا من أن تيأسي وتظنّي أنّك تعملين وتعملين وبعد ذلك ربّنا يساوي بينك وبين الّذي لا يتّقى ولا يعمل. وعلى هذا تصوّري أنّك حين

(١) الجاثية: ١٩.

(٢) البقرة: ١٢٧.

تشعرين أنّك تعملين، وتتساوين بالّذي لا يعمل، ماذا يفعل الشّيطان في الذّهن! يقول لك: (إذًا لا تعملي)! فمن ظنّ أنّ الله (يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم) فقد أساء الظّنّ بالله!

تقولين: (وما أدراني أنّي مقبولة!)، **يكون الجواب**: من حسن الظّنّ بالله أن تعملي الأعمال الصّالحة الّتي هي السّبب، وتسألي الله القبول؛ فإذا سألت الله القبول، تكونين قد أحسنت الظّنّ بالله. هل واضح أين سوء الظّنّ؟ أنّه يأتي أحد يقول لك: (والله أنت تتعبين نفسك بدون جدوى، ربّنا ما يقبل أعمالك)! خصوصًا لو أتى فأوّل لك الحديث تأويلًا باطلًا: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ»[1]، فيأتي بهذا الحديث ويقول لك: (يعني بعدما تعبت هذا كلّه من الممكن أنك في النهاية لا تحصّلين شيئًا)! **نقول له**:

أوّلًا: هذا الحديث له رواية أخرى تبيّنه، هذا الرّجل كما في الرّواية الثّانية: «لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»[2]، لكن في داخل قلبه فيه ما فيه من الباطل! فيه ما فيه من النّفاق! هذه المسألة الأولى.

المسألة الثّانية: (أنا ما أضمن نفسي أنّي أكون!)، ولذا دائمًا نستعيذ بالله من الشّرك، دائمًا نستعيذ بالله من مضلاّت الفتن، دائمًا نسأل الله القبول، لكن أنا أعرف أنّ دين الله لا يمكن أن يساوي بين الّذين اجترحوا السّيّئات، والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات. لا يمكن! وإذا ظننت أنّ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٩).
(٢) أخرجه البخاري (٣٩٩٢).

المتّقين المؤمنين يبذلون جهودهم وبعد ذلك في النهاية يكونون مساوين للّذين ﴿اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ﴾؛ ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[(١)]! كما قال الله -عزّ وجلّ- في سورة الجاثية.

ومن أجل أنّنا ولابدّ أن نكون اليوم قد انتهينا، سنذهب إلى آخر كلامه، وهو كلام مهمّ جدًا، لكن إذا بقينا معه لن ننتهي إلى نهاية الفصل الدّراسي، فلابدّ أن ننتقل إلى ما بعده، فدعنا فقط نقرأ الكلام:

(فأكثر الخلق، بل كلهم إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بنى آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربى، ومنعني ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به).

يعني: هذا حال أكثر النّاس، أنّهم يسيئون الظّنّ بالله! ويشعرون أنّه المفترض أن تكون عطية الله لهم أكثر! ومن المفروض أن يكونوا في مكان أحسن! هذا لسان حالهم يقولونه، وإن كانوا ما يتجاسرون أن يقولوه بلسان مقالهم.

(ومن فتش نفسه، وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامنًا كمون النار في الزناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده، ولو فتشت من فتشته، لرأيت عنده تعتبًا على القدر وملامة له، واقتراحًا عليه خلاف ما جرى به).

---

(١) الجاثية: ٢١.

هذه هي صورة سوء الظنّ، أنّه حين ينزل قدر، فإمّا أن يكون هناك عتب على القدر أنّه: (لماذا حصل لي كذا؟!) أو ملامة -فالعتب والملامة نعتبرهما معا- أو يقترح على القدر أنّه: (الأفضل كان حصل لي كذا!) ولذا حين تنظرين إلى قول عمر بن عبد العزيز المأثور عنه أنّه كان يقول: (أصبحت ومالي سرورٌ إلا في مواضع القضاء والقدر)[١]، يعني: من قوّة وسلامة تسليمه لربّ العالمين أنّه مكان ما يضعني ربّي هو الخير؛ ولذلك: (ولو فتشت من فتشته)، لوجدت في قلبه عتبًا على القدر، ولوجدته يقترح على القدر خلاف ما جرى منه!

(وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك ؟).

فهذا هو المهمّ: أنت فتّشي نفسك وانظري: حين تنزل الأقدار، هل أنت معترضة على القدر أو تلومين القدر أو ترين عندك رأي أنّه المفترض أن يكون القدر خلاف ذلك؟! وهو يقول لك: (فتش نفسك هل أنت سالم من ذلك؟).

(فَإِنْ تَنجُ مِنْهَا تنج مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلاَّ فَإِنِّي لاَ إِخَالُكَ نَاجِيَا).

نعم، هذه هي النّجاة، يعني: أنّه إذا سَلمَ فؤادك بأنّ الله **"السّلام"**، وبأنّه **"الملك الحكيم"**، وأنّه -سبحانه وتعالى- **"المؤمن"**، وبذلت جهدك أنّك تمنعين نفسك من هذه العواصف التي يأتي بها الشّيطان من الوساوس، إذا جاهدت، وجاهدت؛ **إذًا: هذه هي النّجاة**: أنّك تلقين الله ولا يوجد في قلبك دسيسة ترديك!

(فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله تعالى).

---

(١) جامع العلوم والحكم _ ابن رجب

بداية الحلول الآن: **أوّلًا:** فليتب إلى الله.

(وليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء).

ثانيًا: ويستغفر، ويكثر من الاستغفار لهذه الجريمة الّتي يأتي بها الشّيطان دائما.

(وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء).

ثالثًا: دائمًا حين تأتي الأقدار، وتتسارع له مثل هذه الأفكار، يتوب، ويستغفر، ويقول: (أنت الّذي لا تفهم! أنت الّذي ما قدّرت الأمور قدرها! وإلا لو أنّك نظرت فأكيد أنّ هناك حكمة حتّى لو ما أدركتها. وماذا تكون حكمتك في حكمة الله؟! ماذا يكون علمك في علم الله؟!

(التي هي مأوى كل سوء ومنبع كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغنى الحميد، الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته، وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كذلك، كلها حكمة ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماؤه كلها حسنى).

رابعًا: الاهتمام بتعلّم أسماء الله وعدم الاكتفاء من المرور عليها مرّة واحدة، يعني: لا تعتقدي أنّ مرّة واحدة تكفي أنّك تدرسين أسماء الله؛ لابدّ أنّك كلّ مرّة تعيدين النّظر في أسماء الله لينزل هذا العلم بردًا وسلامًا من

أجل أن يأتي اليقين؛ فاليقين لا يأتي إلّا من معرفة ربّ العالمين. نسأل الله يحفظنا من سوء الظّنّ ويصلح لنا نفوسنا...اللّهمّ آمين.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلّا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته